السَمَّاع

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٧٩٠١

بطاقة فهرسة

النجار، مصطفى

السَّمَّاع رواية/ مصطفى النجار ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٦٠ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك:٧-٢٠٩-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

السَمَّـاع

رواية

مصطفى النجار

(١)

الأمر في صعوبته كان أشبه باستعادة روح من بين مخالب الموت، الجميع يحاولون قدر جهدهم إيقاظ الطبيب الشاب من نومه ولا يستجيب لمحاولاتهم، بل أن الشك في مرحلة ما قد بلغ بهم مبلغا ظنوا معه أن هذا الطبيب الشاب قد فارق الحياة لولا صدره الآخذ في الارتفاع والهبوط وصوت شخيره الذي كان يتردد صداه في طرقات المستشفى قبل دخولهم غرفة المبيت التي ينام بها!

بعد معاناة طالت فتح جفنيه في تكاسل ما لبث أن تلاشى وقد اتسعت حدقتاه دهشة ممعنا النظر في هذا الجمع من الرجال الذين يحيطون به!

كان ينتوي توجيه السباب للممرض البدين قصير القامة على إيقاظه إن كان ذلك قد تم لسببٍ تافه بعدما أكّد عليه سابقا ألا يوقظه إلا إذا نشبت حرب عالمية ثالثة واستدعت الضرورة إيقاظه حينئذٍ، ولكن الطبيب تراجع عن فكرة السباب أو التعنيف واكتفى بابتلاع غضبه خوفا من هذا الجمع الغاضب أمام ناظره والمتأهب للفتك به بين لحظة وأخرى!

– إيه يا محمد اللي حصل ؟! .. الناس دي متجمعة ليه؟!

قالها مجدي لبيب الطبيب الشاب مجعد الشعر مبعثره بصوت حاول جاهدا أن يغلفه بصرامة ترهبهم؛ ولكن محاولته بائت بالفشل.

– يا دكتور أنا والعدرا .. والمصحف اسمي جرجس.

قالها الممرض غاضبا من إصرار الطبيب على مناداته بمحمد تساهلا منه كي لا يبذل جهدا لتذكر اسمه رغم مضي أسبوع منذ مقدمه للعمل بذلك المستشفى العام في مدينة منيا القمح.

أشاح الطبيب بيده في ازدراء واضح ناهضا من فراشه متمتما بكلمات بدا أنها سباب للممرض على تدقيقه في أمور فرعية دون الإجابة على سؤاله.

"يا دكتور فيه واحد غريق في الاستقبال بيموت وأنت سايبه ونايم"

"إيه ؟! .. مفيش في قلوبكم رحمة؟!"

"حسبنا الله ونعم الوكيل"

"مفيش حد بيراعي ربنا في شغله"

"أمال لو ما كنتوش ناهبين خير البلد"

قذائف العبارات الغاضبة مصحوبة بنيران غضب تشتعل في الصدور انطلقت من أفواه الرجال القرويين بجلابيبهم الريفية وشواربهم الكثة وعمائمهم الصوفية بنية اللون منذرة بثورة قد تنتهي بمقتل الطبيب الشاب

في أيام عمله الأولى والتمثيل بجثته في هذه المدينة البعيدة عن أهله وعشيرته، وربما ألقوا بأحشائه للكلاب الضالة بقريتهم.

متزمرا هرول مجدي لبيب بملابسه غير المهندمة وشعره المبعثر الأشعث بعينين ملتهبتين لم تفارقهما بعد أثار النوم متجها نحو الاستقبال مدفوعا بخشيته من بطش هؤلاء الرجال القرويين القادرين في نوبات غضبهم على إحداث جروح غائرة في كرامته إن لم يكن بجسده.

– لأ .. بصوا بقى .. أنا كده مش هعرف اشتغل .. كله يطلع بره.

صاح بها مجدي لبيب متصنعا الغضب ليخرج الرجال جميعهم ويتركونه والممرض بمفردهما مع حالة الشاب الذي فهم منهم في طريقه للاستقبال بأنهم قد انتشلوه من سيارته التي استقرت في قاع الترعة قبل أن يلفظ أنفاثه الأخيرة غرقا.

مجدي لبيب في وضع لا يُحسَد عليه على الإطلاق، طبيبا شابا كان، حديث التخرج، هو الأول على دفعته في الفشل إن كان هناك مقياسا للجزم بذلك، لا يعرف عن الطب شيئا ولم يستغل عام الامتياز ليحاول!

وحيدا كان في استقبال الطوارىء في هذا الصباح الباكر وقد انصرف زميلاه الأقدم منه لمنزلهما بعد منتصف الليل مباشرة وتركاه بمفرده بعدما خدعاه مدعين أن هذه الوردية في ليلة الجمعة عادة ما تكون هادئة، لم يجد في نفسه الشجاعة ليصارحهما بأنه لا يعتبر نفسه طبيبا على الإطلاق وغير مؤهل بالمرة سوى للتعامل مع بعض الجروح السطحية التي لا تستدعي خياطتها،

قطنة عليها القليل من الكحول الإيثيلي تركيز ٧٠٪ قد تفي حينها بالغرض إن لم يجد في الطواريء (كولونيا) خمس خمسات الشهيرة!

جرجس عوض الممرض القصير البدين المتمرس وقف ينظر للطبيب الشاب معدوم الخبرة في سخرية منتظرا ما سيقوم به لإسعاف الحالة، يرى في نفسه خبرة وعلما لا يتوفران في هؤلاء الأطباء حديثي التخرج!، نظرات جرجس عوض الساخرة استفزت مجدي لبيب فقال في ثقة مصطنعة:

– جهزلي حقنة أدرينالين بسرعة بدل ما أنت واقف بتبحلقلي زي خيبتها كده.

تحرك متثاقلا جرجس عوض محاولا ابتلاع الإهانة بدلا من انتزاع أحشائه، لا يدري السبب الذي طلب من أجله الطبيب المغرور هذه الحقنة ولن يمن عليه بمساعدة أو نصيحة ولن يسمح له بالإبحار في بحار خبرته، قرر أن هذا الطبيب عليه أن يتحمل نتاج غروره وتكبره وحيدا على جزيرة جهله النائية.

أمسك مجدي لبيب بقطعة كبيرة من القطن الطبي وغمرها بالماء ثم عصرها فوق وجه الرجل الممدد أمامه ثم جعل ينظف وجهه بقطعة القطن المبللة من أثار مياه الترعة.

عندما التفت جرجس عوض حاملا محقن الأدرينالين نحو مجدي لبيب صدمه رؤية الطبيب الشاب وهو يقوم بعمل تنفس صناعي عن طريق الفم والضغط على صدر الرجل فاقد الوعي.

– يا دكتور أنت بتعمل إيه ؟! .. الراجل بيتنفس عادي مش محتاج اللي أنت بتعمله ده!

لو كان الغضب رجلا لكان مجدي لبيب حين استفزه الممرض بسخريته ملمحا لانعدام خبرته، أشاح مجدي لبيب بيده قائلا:

– أنت هتفتي في شغلي؟! .. ده تكنيك جديد مستند على بحث علمي أسباني اتنشر في جامعة سيرجيو لامباداز .. جهزلي بسرعة جهاز الصدمات .. الراجل نبضه ضعيف.

ضرب جرجس عوض كفا بكف حسرة على ما آل إليه حال التعليم المجاني، لم ير طبيبا يفعل حماقات طبية مثل مجدي لبيب المتغطرس الذي يبدو أنه لا يجيد شيئا سوى لف سجائر الحشيش مثلما سمع الطبيب أحمد سليمان يحدث زميله أحمد بلال.

– يا دكتور أنت متأكد من اللي هتعمله؟

سأله جرجس عوض بما تبقى لديه من ضمير يحاول هزم كبريائه الذي يمنعه من مصارحة الطبيب بانعدام خبرته العلمية والعملية كليهما، ولكن نظرات مجدي لبيب الغاضبة ألجمته وأبلعته لسانه مانعة إياه من الاستطراد في الحديث، من الخطأ الفادح استخدام جهاز الصدمات الكهربائية مع قلب نابض وقد يؤدي ذلك لتوقفه، استكمل إعداد جهاز الصدمات الكهربائية ودهن القطبين بالدهن الموصل للكهرباء ثم ناول القطبين لمجدي لبيب

الذي وضعهما في وضع خاطيء متجاورين على صدر الرجل الممدد أمامه، قلل جرجس عوض الجهد الكهربائي قدر الإمكان، شحن مجدي لبيب القطبين ثم مرر الشحنة الكهربائية بعد سماع إشارة انتهاء شحن القطبين، انتفض جسد الرجل الممدد أمامه، عاود مجدي لبيب الكرة آملا أن يفتح الرجل عينيه وينظر ممتنا له قائلا "أنا الآن بخير .. أشكرك يا طبيبي العظيم" مثلما يحدث في الأفلام السينمائية البوليودية ولكن الرجل لم يبرح غيبوبته.

وقف جرجس عوض ناظرا لمجدي لبيب في لوم، ولكن الأخير لم يشأ أن يتنازل عن غروره فقال بلهجة غاضبة:

– شوفلي عربية إسعاف تنقله الجامعة، احنا معندناش مكان في العناية هنا.

خرج جرجس عوض من غرفة الطواريء باصقا في غضب على الأرض مخالفا تعليمات وحدة مكافحة العدوى بالمستشفى ومتمتما بكلمات استشعر مجدي لبيب أنها تقصد إهانته.

كان مجدي لبيب يعرف أن الحماقات التي فعلها مع هذه الحالة لا تستند إلى أي أساس طبي، بل هو يؤمن تمام الإيمان بعدم علمه بأبسط الأسس العلمية للتعامل مع حالات الغرق أو مع أي حالة طبية مهما بلغت بساطتها، كان يعرف أن جرجس عوض لن يسيطر على لسانه وسيطلق لسانه ليتراقص في الطرقات ليخبر الجميع بما حدث في هذا الصباح الباكر في الطواريء وكيف فشل الطبيب الشاب في التعامل مع الحالة.

كان يعرف أن وجوده بمفرده في هذه الوردية سيكون سببا للتندر والسخرية منه بين زملاءه لفترة ستطول، ويدرك كذلك أن من الصعب التضحية بمستقبله بقتل المرض جرجس عوض واجتزاز عنقه قبل أن يفضحه وتفوح رائحة سمعته الملوثة في طرقات المستشفى كما تفوح رائحة الفسيخ في سوق يوم الأثنين، كان سيفعل لو ضَمِنَ النجاح في إخفاء جريمته وضَمِنَ عدم استجوابه من تلك المذيعة السخيفة في برنامجها السخيف سائلة إياه إن كان يشعر بالندم.

في لحظة غضب منشأها اليأس قام بتقليل الجهد الكهربائي لجهاز الصدمات الكهربائية قليلا ثم شحن القطبين قبل عودة جرجس عوض، استمع لإشارة انتهاء شحن القطبين، مرر الشحنة الكهربائية عبر القطبين الذين ثبتهما على جانبي رأس الرجل الممدد أمامه الغارق في غيبوبته بدلا من صدره، انتفض جسد الرجل من أثر الشحنة الكهربائية، أعاد مجدي لبيب شحن القطبين ثم أعاد الكرة لينتفض جسد الرجل مرة ثانية دون أن يستفيق من غيبوبته ليكيل له السباب.

محاولاته جميعها منذ بداية التعامل مع الحالة بائت بالفشل، لم يكن مقدرا لمجدي لبيب أن يخرج لسانه لجرجس عوض الممرض ساخرا منه متباهيا بخلفيته العلمية التي أهلته لإعادة الرجل من غيبوبته بطريقة جديدة ابتكرها مستخدما جهاز الصدمات الكهربائية مباشرة على الرأس!

آمن مجدي لبيب بفشله في إفاقة الحالة، أشعل سيجارة ونفث دخانها في غضب وجلس على كرسي مجاور للفراش منتظرا عودة جرجس عوض بمحفة الإسعاف لنقل الحالة للمستشفى الجامعي بالزقازيق، دفن وجهه بين كفيه غير عالم أن جهله الطبي سيغير كثيرا من مستقبل هذا الرجل الممدد أمامه حبيس غيبوبته.

***

(٢)

جلس أمام حاسوبه المكتبي مكفهر الوجه عابثه، يخرج من فمه زفيرا يكاد يبعثر الأوراق المتراكمة فوق مكتبه غير المنظم.

استحالت شحمتا أذنيه للون الأحمر سخطا فبثت حرارة في جسده بأكمله، يستشيط غضبا حتى لتكاد أن تر دون عناء أبخرة دماءه المحترقة تتصاعد من حوله، أرخى ربطة عنقه قليلا وقد شعر أنها توشك أن تخنقه، التقط علكة يفرغ عبر فكيه بها حنقه البالغ قائلا في ضيق لزملائه:

- حد يعلي التكييف يا جماعة والنبي، الدنيا ولعة!

كان مطلبا غريبا في هذا الوقت من العام، شهر يناير قارس البرودة لم ينته بعد، نظر له زملاؤه في دهشة وندت عن زميلته يارا ناصر ضحكة خافتة ساخرة، تعرف هي جيدا تلك اللحظات التي تراه فيها يكاد يميز من الغيظ لفشله في التأقلم مع ضغط العمل المستمر، هي تعلم سر حنقه البالغ- هذه

الأيام تحديدا – بعدما صارحها به، أوشك شهر يناير على الانتهاء ولم يتمكن علاء نبيل بعد من الانتهاء من ملف (الإكسل) الخاص بالأجور بعد حساب الزيادة السنوية، حسن زيدان زميلهما اختفى منذ شهر مضى ولم يكلف نفسه عناء ترك كلمة السر الخاصة بفتح أقفال الحماية التي وضعها على ملف الأجور، هكذا وجد علاء نبيل نفسه فجأة مكلفا بإعداد ملف جديد بكل معادلاته ودواله الحسابية بالغة التعقيد، إن تأخر عن بداية فبراير فلسوف يجد العاملون بالشركة أنفسهم يتقاضون رواتبهم دون الزيادة السنوية التي طالما راودتهم في أحلام اليقظة والمنام، لسوف يقدمه مغاوري فتح الباب مدير الحسابات السمين ذو الكرش المتدلي ككبش فداء للعاملين الساخطين لينتزعوا حنجرته دون أن تأخذهم به رأفة أو رحمة وسيجد ابناه الاثنان أنفسهما قد صارا يتيمين بسبب تصرف – متعمد كان أو غير متعمد – من حسن زيدان ليبدئا رحلة القصاص لأبيهما من الأخير إن ظهر ثانية على سطح الأرض!

أسبل جفنيه وسحب شهيقا عميقا ابتلع خلاله ما استطاع أن يبتلعه من هواء الغرفة محاولا التركيز ليبدأ من جديد محاولاته التي يرجو الله ألا تبوء بالفشل لولا جرس هاتف المكتب جواره الذي جعله برنينه المفاجيء وصوته المرتفع المستفز يقفز مذعورا من مقعده لتصطدم يده بكوب القهوة الموضوع إلى جواره لينسكب على أوراق العمل ليستغرق جميع الزملاء بالمكتب في موجات من الضحك بدا أنهم لن يوقفوها، لعن الجميع وسب

آبائهم وأجدادهم في سره بأقبح السباب، لقد أفقده رنين الهاتف المفاجيء لا شك قدرته على الإنجاب ولن يجد نفسه مضطرا لارتداء الواقي الذكري الذي تجبره زوجته عليه كأفضل وسيلة لمنع الحمل!

علاء نبيل مثال متكامل للرجل العشوائي، يكره فكرة أن يكون منظما، بل إنه قرر منذ فترة أن يحلق شعره تماما ليستريح من سخرية زملائه من شعره غير المصفف، بالإضافة لرغبته في توفير أجر الحلاق إذ لم يتعد الأمر ماكينة حلاقة كهربائية وبعض المجهود من زوجته للحلاقة لزوجها، لا يُعرَف السبب لعدم اهتمامه بهندام ملابسه وكأنه يجد في الأناقة رفاهية لا تليق بالضغوط التي تحاصره بها الحياة، سيواجه الحياة بعشوائية كي لا يحزن إن لم تعامله الحياة بالاحترام الذي يستحقه البشر.

التقط سماعة الهاتف المستفِز الذي لا يكف عن رنينه ليجد على الطرف الآخر مشرف الأمن يطالبه بالحضور للبوابة لمقابلة سيدة طلبت مقابلته لأمر عاجل وبالغ الأهمية.

– يا عم اسماعين قل لها نص ساعة وهنخرج أنا مش فاضي ورحمة أبويا، لو من الموردين قل لها تيجي بكرة والسلام.

أخبره إسماعيل أبو العزم مشرف الأمن أنها تُصَرُ على مقابلته في أمر لا يحتمل أي تأجيل، أنهى علاء نبيل المكالمة وهو يكيل السباب لهذه السيدة ولإسماعيل أبو العزم أيضا، نظر إلى القهوة المسكوبة فتيقن أن الآوان قد

مضى على محاولة تنظيفها أو إنقاذ أيا من الأوراق كما أوحى له عقله الباطن مطمئنا أياه أن سكب القهوة خيرٌ لا شك في ذلك!

عندما دخل لغرفة الأمن المجاورة لبوابة الشركة الرئيسية وجد فتاة محجبة لا تتجاوز منتصف العقد الثالث من عمرها، هي وإن كانت تمتلك قدرا من الجمال الذي ساعد في تهدئة غضبه من افتقادها للصبر على لقاءه وساعدت ملامحه المتجهمة على أن تلين قليلا وتنبسط، إلا أن ملابسها البسيطة وحقيبة يدها القماشية الضخمة وخصلة بادية من أسفل حجابها صبغتها بالأصفر مستخدمة ماء الأكسوجين أصابوه بالإحباط التام بعدما رآها فتاة تتشبث قدر جهدها بقاع الطبقة الوسطى محاولة ألا تسقط في هاوية الفقر، علاء نبيل كان يكره الفقر وكل ما يمت له بصلة ويكره الموشكين على السقوط في هاويته، ولم تمتلك تلك الفتاة القدر الكافي من الجمال الذي يؤهلها لأن تصبح استثناءً.

توترها الذي ظهر على وجهها أوحى له بأنها قد ارتكبت جريمة تستحق الإعدام في ميدان عام حين صافح يدها المرتعشة، جلس في المقعد المجاور لتلقي عليه كلماتها التي لم يكن يتوقعها وإن كان على استعداد تام لدفع حياته ثمنا لسماع شيء مماثل:

– أنا جايالك من طرف أستاذ حسن زميلك .. الأستاذ حسن زيدان.

***

لو سأل أحدهم علاء نبيل منذ أربع ساعات ماضية ماذا كان ليفعل إن رأي حسن زيدان زميله في العمل وجها لوجه، لأخبرهم دون تردد بأنه سينتزع أحشاءه ولن يجد حرجا في أن يحشو أمعاءه بالأرز المتبل ليطهه كممبار شهي يُذهِب بلذة مذاقه غضبه البالغ من صديقه، ربما لم يكن علاء نبيل يمتلك القوة البدنية اللازمة لفعل ذلك بقوامه الهزيل للغاية ولكنه كان سيبذل قصارى جهده.

اختلف الأمر حين رأى حسن زيدان بالفعل في تلك الحالة العليلة فوقف عاجزا عن الحركة وعن النطق يحدق في صديقه المسجي أمامه على فراشه بالعناية المركزة في مستشفى الزقازيق الجامعي مضمد الوجه أسفل جهاز التنفس الاصطناعي وجبيرة تضمد ذراعا قد يكون مكسورا يظهر فوق الملائه التي تخفي بقيه ما أصابه، لم يتحمل الطفل داخل علاء نبيل هذا المشهد فانسلت دموعه دون وعيه من عينيه مسامحا صديقه وراجيا الله أن يشفيه وأن يخفف عنه.

أخبروه في المستشفى أن العناية الإلهية وحدها قد أنقذت حسن زيدان من الموت غرقا، لم تتلق حالته العناية الكافية في مستشفى منيا القمح العام فقير الإمكانيات فنقلوه إلى المستشفى الجامعي في المدينة المجاورة، دخل في غيبوبة ولم يستفق منها إلا في ذلك اليوم السابق بذاكرة واهية لا تقوى على

تذكر شيء سوى اسم "علاء نبيل" وعنوان عمله، ولم يكد يخبرهم بذلك حتى أنزلق ثانية في نفق غيبوبته المظلم!.

تطوعت هذه الممرضة الشابة بالذهاب إلى العنوان بالقاهرة أملا في التحصل على أي مبلغ مالي كمكافأة لها على الوصول لأي من معارف هذا الجسد المسجي بالعناية المركزة مجهول الهوية، لم تمض عدة ساعات منذ مقدم علاء نبيل حتى تكدست المستشفى بزملائه ومديريه بالشركة الذين هرعوا للاطمئنان عليه ثم بدئوا في المضي بأقصى سرعة تسمح بها البيروقراطية الحكومية في إجراءات نقله إلى كبرى المستشفيات الخاصة بالقاهرة رغم تأكيد الطاقم الطبي على أنه يلقى الرعاية الطبية اللازمة بالمستشفى الجامعي، يخشى زملاؤه من أن تغفوا الممرضة ليلا فيدخل ذئب جائع إلى العناية المركزة ليلتهم أحشائه أو يسقط نيزك فوق رأسه من السماء يودي بحياته وسط إنكار العاملين بالمستشفى مسئوليتهم عن ذلك، لا يمكن المغامرة بالوثوق في مستشفى حكومي فقير الإمكانيات الطبية لا يتوفر به قفازات معقمة أو محاليل طبية أو شاش معقم، الحكومات المتعاقبة تعطي الأولوية للإنفاق على رصف وتزيين الطرق معتقدة أن احتياجات المستشفيات الحكومية تتكفل بها أموال الصدقات!

يومان مرا في المستشفى الخاص قبل أن يستفيق ثانية حسن زيدان هاربا من متاهة غيبوبته، عندما فتح عينيه في ذلك المساء أبصر في الغرفة الواسعة شبحي شخصين يجلسان على أريكة في نهاية الغرفة، فقد نظارته في الحادث

فانتهت علاقته بالقدرة على الإبصار بشكل جيد منذ تلك اللحظة، لم يكن الشبحان سوى علاء نبيل صديقه وقد اختطفه النوم فتدلت رأسه على صدره ليسيل خيط رفيع من اللعاب على ملابسه، والشبح الآخر كان زميلتهما يارا ناصر وقد جلست تتصفح شيئا ما على هاتفها المحمول، حاول حسن زيدان أن يتحدث فشعر وكأن فكيه مكبلان بأطنان من الصمغ فصدرت عنه تأوهات نجحت في أن تلتقطها أذنا يارا ناصر من خلف حجابها العصري لتنظر له بعينين امتلئتا باللهفة.

– حسن فاق يا نبيل .. !

صاحت بها مبتهجة لاكزة علاء نبيل بعنف غير متعمد في كتفه وهي تهرع في لهفة وسعادة غامرة نحو حسن زيدان فتبعها علاء نبيل متعثرا أثناء نهوضه ساقطا على الأرض بعنف غير مصدق لعينيه!

– ألف سلامة يا عم حسن بيه..

صدرت من فم حسن زيدان ابتسامة باهتة منعها الألم من الاتساع والوضوح بعدما تبين ملامح زميليه عن قرب بغير نظارته، ربط علاء نبيل على كتفه مطمئنا وهرع إلى التمريض يعلمهم باستفاقته التي انتظرها الجميع ولم يكن يرغب بها حسن زيدان!.

***

بوجه خلا من مشاعر السعادة طمأن الطبيب زميلي حسن زيدان على حالة زميلهما واسترداده لوعيه وذاكرته بشكل كامل، ولكنه طلب منهما دون ضرورة طبية أن يتركاه ليستريح حتى الصباح كي يتأكد من استقرار حالته، انصاع علاء نبيل ويارا ناصر لمطلب الطبيب، ولكن ما إن خرجا من الغرفة حتى توقف الأول فجأة وقد بدا عليه أنه قد تذكر شيئا مهما.

- ثانية واحدة يا يارا وراجع.

قالها وهرع ثانية عائدا إلى غرفة حسن زيدان الذي تفاجأ من عودة زميله ولكن الأخير بادره سائلا بلهفة:

- أنت افتكرت كل حاجة يا حسن مش كده ؟!

هز حسن زيدان رأسه مبتسما وقد منعه الألم الذي يضرب رأسه من الحديث، توقع أن يطلب زميله منه استرداد أموال سيدعي أنه قد استدانها منه قبل غيبوبته، ولكن علاء نبيل فاجأه بسؤال صدمه وكاد أن يعيده ثانية لظلام متاهة غيبوبته قائلا:

- أبوس إيدك يا شيخ، وحياة أمي الغلبانة .. باسوورد ملف الإكسل بتاع المرتبات كام؟!

***

المكان: السنبلاوين – الدقهلية.

الزمان: منذ ستة عشر عاما – الساعة التاسعة صباحا.

لا نظلم سهير عبد الرازق إن وصفناها بأنها زوجة وأم غير نشيطة، بل هي تتفق معنا في هذا التوصيف!، رغم كونها ربة منزل بلا عمل يشغلها عن بيتها، إلا أن ذلك أكسبها كسلا فوق كسلها الفطري.

الهدوء هو سمت الشارع في هذا التوقيت من الصباح، فجميع الجيران ما بين مسافرين إلى قراهم لقضاء أول أيام عيد الفطر مع الأهل والعشيرة، ونائمين في شققهم النظيفة بعد صلاة العيد.

متأخرة كعادتها كل عيد في الانتهاء من تنظيف الشقة رغم مساحتها الصغيرة، لم تنجح أبدا في اختيار التوقيت المناسب للبدء في عملية التنظيف بحيث تنتهي تلك المهمة الشاقة قبل العيد كبقية جاراتها الخبيرات، دائما ما تخطيء في تقدير عامل الكسل.

لم يتبق لها بعدما انتهت من غسيل ملابسها وملابس زوجها النائم الذي يتعالى صوت شخيره وملابس طفليها سوى غسيل الستائر، لا يعد العيد عيدا بغير شجار مع زوجها ضيق الصدر حول فك وتركيب الستائر.

– حاسب يا شريف يا حمار .. الموتوسيكل كان هيخبط اختك.

صاحت بها من شرفتها أثناء نشر الستائر معنفة ابنها الكبير ذا الأربعة أعوام حينما مرت دراجة بخارية (موتوسيكل) إلى جوار ابنتها الصغرى (ملك) ذات العامين وكادت أن تصدمها.

– وأنت ابقى فتح يا خويا .. الشارع واسع.

استطردت غاضبة معنفة سائق الدراجة ثم انحنت لتلتقط ستارة أخرى لنشرها، انشغالها بالبحث عن أطراف الستارة شغلها عن دوران الدراجة عائدة تجاه الطفلين.

نجح صراخ صغيرها مستنجدا بها في لفت انتباهها، رفعت رأسها ضجرا مستاءة من صوت صريخه لتجده يقف وحيدا مع كرته البلاستيكية الجديدة وهو يصرخ مشيرا إلى الدراجة التي ولت مبتعدة وقد حمل راكبيها بين جسديهما طفلتها الصغيرة!

– يا ولاد الكلب .. حرامي ... الحقوني ..

صراخها بكل ما أوتيت حنجرتها من قوة أفزع الجيران، بل نجح في إيقاظ زوجها النائم فزعا لا يدري ما حدث.

هرعت تجري على سلم البيت وزوجها يحاول أن يستفهم منها عما يحدث وهي تكتفي بترديد "خطفوا البت يا سعيد .. خطفوا بنتك يا سعيد" ..

الأم والأب يجريان حفاة الأقدام في الشارع في اتجاه اللصوص، تسقط سهير وتدمي السقطة على الأرض كفيها فلا تأبه بذلك وتنهض متعثرة لتستكمل الركض ..

الأب صامت تماما لا يتعالى إلا صوت لهاثه مطلقا ساقيه للريح تجاه الشارع العمومي البعيد ..

سهير انهكها الركض وافترشت الأرض تلطم خديها وتهيل التراب على رأسها فيختلط بدموعها الحارة متحولا لأنهار من طين يحمل فجيعتها ولوعة قلبها واحتراقه.

الأب انهكه الركض هو الآخر ولا يبصر أي أثر لابنته ليسقط على ركبتيه باكيا حسرة وعجزا في صمت، غير شاعر بالجيران الذين لحقوا به محاولين تهدئته ..

عقلهما منشغل بذلك المصير الأسود غير واضح المعالم الذي ينتظر ابنتهما (ملك) .. مصير يصبح الموت أمامه أكثر هوانا على قلبيهما.

***

(٣)

أسبوع مر منذ استفاقته من غيبوبته، قضاه حسن زيدان في المستشفى، كان زملاؤه يتبادلون زيارته كل يوم، ولكن علاء نبيل ويارا ناصر كانا الوحيدين الذين يداومان على زيارته بشكل يومي، كان حسن زيدان يقدر جيدا تضحيات علاء نبيل زميله كي يتمكن من زيارته كل يوم، ويقدر صعوبة استئذانه من زوجته لتسمح له ببعض من الوقت يقضيه معه في المستشفى يوميا، أما يارا ناصر فقد تفاجأ من شهامتها ووقوفها إلى جواره في محنته، لم يتسن له أن ير هذا الجانب من شخصيتها من قبل!

عاد حسن زيدان إلى شقته وحيدا كما كان من قبل ترافقه دوما وحدته، يستقبل صديقه علاء نبيل بشكل يومي ليحضر له متطلباته ويجالسه قليلا وتكتفي زميلته يارا ناصر بالاطمئنان عليه أكثر من مرة هاتفيا في اليوم الواحد.

لم يكن لحسن زيدان أصدقاء يوصفون بالأصدقاء المقربين، منذ قدم إلى القاهرة منذ أكثر من عامين وهو غريب عنها ولا يبذل أي جهد محاولا التأقلم معها، يعتبره أصحابه في العمل "تجهما" يمشي على قدمين!

كل المآسي والكوارث التي تعرض لها في حياته هي ما حولته من شخص مرح لا تغيب الابتسامة عن وجهه حتى وإن ارتكبت الكبائر إلى شخص كئيب الطلة متجهم الوجه عابسه أغلب الوقت، ولم يكن حسن زيدان يمتلك قدرا من الوسامة التي تجعل من تجهمه الدائم عنصر جذب، بشرة قمحية ونضارة سميكة الإطارات والعدسات وشعر شبه مجعد يحاول أن يهذبه قدر الإمكان كي لا يبدو أشعثا، وقوام لا هو رياضي ولا هو بدين وإن ظهر في منطقة البطن نتوء صغير لكرش توقف نموه، صموت لا يتحدث إلا وقت الضرورة وحين يتحدث يحاول أن يحتفظ بهدوئه كي لا يظهر تلعثمه الذي يعاني منه أوقات غضبه وهياجه.

شخص بهذه المواصفات لم يكن مرحبا به إلا للضرورات التي يقتضيها العمل وسط مجتمع زملاءه المرفهين، علاء نبيل هو الوحيد الذي كان صديقا له بالفعل داخل العمل وخارجه في بعض الأحيان، لم يكن علاء نبيل إلا مثالا للزوج المثالي الذي يعمل لينفق – فقط – على أسرته وينهي عمله ليقضي بقية اليوم مع عائلته، وتعد المقاهي من المحرمات في لائحة بيته الداخلية التي وضعت زوجته بنودها، لذا لم يكن حسن زيدان يجد سلواه في بقية اليوم إلا في الجلوس وحيدا بعض الوقت على مقهى شعبي بالقرب

من بيته، ويذهب للبيت ليجلس متصفحا تطبيق فيس بوك وفي الخلفية يتردد صوت التليفزيون الذي لا يلتفت إليه.

طباعه لم تتحمل المكوث في شقته التي يخيم عليها الكئابة أكثر من ذلك فاضطر مجبرا إلى العودة لعمله الذي اعتاد أن يقضي فيه جل يومه، عاد إلى العمل رغم رفض زملائه وترحيب مغاوري فتح الباب مديره المباشر الذي لم يكن يعترف بالأعذار حتى وإن شملت المرض!

في أيامه الأولى بعد عودته إلى عمله كان يفتقد القدرة على التركيز، عقله مشوش بشكل دائم، أخبره الطبيب من قبل أن ذلك سيستمر فترة ليست بالقصيرة وتقبل حسن زيدان الأمر مضطرا.

"أنا في الـ Smoking Area.. تعالى ورايا"

أرسلها حسن زيدان إلى علاء نبيل عبر البريد الإلكتروني الخاص بالشركة ونظر إلى زميله الذي ما إن رأى الرسالة حتى هز رأسه موافقا في تسليم بالأمر.

في المنطقة المفتوحة الخاصة بالمدخنين في الدور الأخير من المبنى كان حسن زيدان ينفث في ضيق دخان سجائره منتظرا مقدم علاء نبيل.

– هقف معاك بس ما تنفَّخش في وشي عشان الحكومة بتشمني وأنا مش ناقص.

ابتسم حسن زيدان من قول زميله الذي لا يفتأ يكرره، هو يعلم تماما طباع تلك الزوجة المسيطرة على زوجها ومدى معاناة علاء نبيل من ذلك الأمر.

– أنا مخنوق مش عارف أركز في الشغل خالص يا نبيل.

تبسم علاء نبيل محاولا جبر خاطر زميله ومهوننا عليه قائلا:

– يا عم حسن أموت واعرف أنت مستعجل على إيه؟! .. كلها كام يوم والدنيا هتتظبط ما تقلقش .. الحمد لله إن ربنا نجاك.

ارتسمت علامات الضيق على وجه حسن زيدان فازداد تجهما وعدّل من وضع نظارته التي تصر على الإنزلاق من فوق أرنبة أنفه قائلا:

– ومين قال بس يا نبيل إني كنت عايز ربنا ينجيني؟!

تفهم بسرعة علاء نبيل – على غير عادته – ما كان يرمي إليه حسن زيدان وقد رأي سحابة من الدموع تتكاثف في عينيه فتوشك على الإمطار، حاول بسرعة تغيير الموضوع مداعبا:

– يا عم والناس اللي بتحبك دي يروحوا فين بس من بعدك؟!، دي البت يارا كانت هتموت عليك يا راجل، فاكر لما قلتلك واحنا واقفين هنا نفس الوقفة المهببة دي إنها بتموت فيك؟!

لم يستوعب حسن زيدان ما حدث، كان يحاول تذكر متى قال له علاء نبيل هذا الأمر من قبل، حين ضرب الألم بعنف رأسه، أمسك رأسه صارخا من قسوة الألم ثم خر ساقطا على ركبتيه قبل أن تتسع عيناه في ذهول لوهلة قبل أن يفقد الوعي!

***

كانت تلك هي المرة الأولى التي يهاجم فيها الألم رأس حسن زيدان بهذه القسوة، كان الأمر وكأن أحدهم قد دق وتدا في منتصف رأسه تماما ثم وجد نفسه ينزلق في نفق مظلم ظن ألا نهاية له قبل أن يتوقف سقوطه فجأة.

شعر بنفسه في غرفة مظلمة تماما مترامية الأطراف وأصوات يتردد صداها في الغرفة دليلا على اتساعها.

ميز بقليل من المجهود صوت علاء نبيل يحدثه عن محاولات يارا ناصر التقرب منه، حوار يتردد صداه فيشعر حسن زيدان بهادية الموجات الصوتية ترتطم بجسده ورأسه، حوار قد حدث بالفعل ولكن منذ قرابة شهر!

عصف الألم برأسه ثانية وكأن أحدهم ينتزع ذلك الوتد المغروس في رأسه.

وجد نفسه ينتقل من حالة السكون للحركة ليسقط ثانية في النفق المظلم.

استمر في سقوطه حتى فتح عينيه لثانية.

ثانية واحدة شهق بصوت مرتفع خلالها ثم ساد الظلام مرة أخرى، ولكن ظلام تلك المرة الأخيرة كان يرجع لفقدانه الوعي من هول الصدمة!

أوصله الزملاء لبيته عندما استفاق منهك القوى وتركوه ليستريح.

في العاشرة مساء استيقظ ليهب مذعورا من فراشه وقد تذكر فجأة ما حدث له قبل أن يفقد الوعي في العمل، نهض من فراشه مستعيذا بالله من شيطانه الرجيم محاولا أن يقنع عقله أن تلك ما هي إلا همزات الشياطين وقتما يحضرون، قرر أن من الضروري زيارة أحد أطباء المخ والأعصاب للاطمئنان على نفسه، هو يتمنى الموت كل ليلة ولم يكن يخشاه، ولكنه يخشى أن يسبق موتَه جنونُه، سيقول السفهاء من الناس أنه فقد عقله بفعل طرقات القدر بمطرقته القاسية بكل عنف على روحه في السنوات الأخيرة، يكره حسن زيدان أن ير نظرات الشفقة في أعين الآخرين!

انتزعه من دوامه أفكاره بسوداويتها رنين هاتفه المحمول الجديد الذي لم يسجل عليه أي أرقام بعد.

- إيه يا حاج، إيه الأخبار دلوقتي؟!

كان هذا زميله علاء نبيل يطمئن عليه، وكان من الواضح من ارتفاع صوته أنه يتحدث وزوجته جالسة إلى جواره لتقتنع أنه كان عند صديقه بالفعل، تبسم حسن زيدان مطمئنا زميله وحاول أن يرفع صوته شاكرا أياه لكي تطمئن الزوجة أن زوجها لم يقرر خيانتها بعد معربدا مع نسوة أخريات.

- حاول تاكل حاجة الأول قبل ما تاخد البرشام اللي أديتهولك.

- برشام إيه يا نبيل؟!

- الدوا يا سيدي المهديء اللي اديتهولك أوعى تكون ضيعته!

حاول حسن زيدان أن يتذكر عن أي دواء يتحدث زميله!، بسرعة عاد الألم ليداهم رأسه مرة ثانية ليجد ذات الوتد يُغرَس في رأسه من جديد، سقط في ذات النفق المظلم مرة ثانية بسرعة أكبر، وجد نفسه في غرفة حالكة الظلام وأصوات يتردد صداها في الفراغ من حوله ليلتقط صوت علاء نبيل وهو يقول:

"ده مهديء بيخليني أعرف أنام لما الحكومة بتكون معكننة عليا، مش خسارة فيك يا عم حسن"

اختفت الأصوات من حوله فجأة وانتُزِعَ هذا الوتد اللعين بقسوة من رأسه ليسقط ثانية في نفقه المظلم واستمر في سقوطه حتى فتح عينيه ليجد نفسه جاثيا على ركبتيه والهاتف المحمول على الأرض إلى جواره يأتي منه صوت علاء نبيل مناديا عليه في قلق.

- أقفل دلوقتي يا نبيل .. أنا كويس.

قالها وقطع الأتصال دون انتظار رد من زميله وظل محملقا في الفراغ أمامه مذهولا غير مصدق لما حدث للتو!

عاود علاء نبيل الاتصال به أكثر من مرة وفي المرة الخامسة عشر أجابه حسن زيدان غاضبا:

– يا نبيل أنا كويس بقولك .. سيبني لوحدي دلوقتي من فضلك.

قطع الاتصال ثانية ولم يعطه الفرصة للجدال.

ما حدث معه في المرتين السابقتين كان عصيا على الفهم، حاول التركيز في تلك اللحظات التي أحضروه فيها إلى شقته، عادت المطرقة لتدق ذلك الوتد اللعين في منتصف رأسه، انزلق ثانية في ذلك النفق المظلم، وجد نفسه في ذات الغرفة المظلمة والأصوات يتردد صداها في الغرفة، يسمع بوضوح صوت محمد منصور يلهث شاكيا من عناء صعوده السلم حتى الطابق الرابع، وذلك صوت علاء نبيل يخبرهما أنه سيحضر له كوبا من الماء من المطبخ والتقطت أذناه صوته وهو يطمئنهم أنه في حالة جيدة، انتُزِعَ الوتد اللعين من رأسه ليسقط ثانية في النفق المظلم إلى أن فتح عينيه غير مصدق لما حدث !

لا يستوعب عقله الأمر، سيستغرق وقتا طويلا حتى يدرك تلك المتغيرات الجديدة قبل أن يفقد عقله.

***

في ظهيرة اليوم التالي ذهب إلى عمله، كان إلى الجنون أقرب، تخلى عن بدلته ورابطة عنقه ودخل بلا استئذان مكتب مديره مبعثر الشعر في ملابس غير رسمية تمنعه من ارتدائها لوائح الشركة الداخلية، طلب من مديره أجازة لمدة شهر، لم يستطع مديره الرفض أمام عيني حسن زيدان المتقدتان كالجمر جنونا، لا يثق مغاوري فتح الباب في قوى حسن زيدان العقلية منذ عودته من أجازته المرضية ويخشى أن يدفعه اضطرابه النفسي إلى الاعتداء عليه أمام العاملين فتذهب هيبته مع الريح، انصرف حسن زيدان بعدما اعتذر لعلاء نبيل على وقاحته بالليلة الماضية وعاهده على عدم تكرار ذلك مرة ثانية، كان الأخير نقي القلب بدرجة تسمح بمسامحته ملتمسا له الأعذار مذكرا نفسه بأن القلم مرفوع بأمر النبي عن المجنون حتى يفيق، وهو يعد حسن زيدان منذ عودته إلى العمل بأفعاله تلك لا يختلف عن أي مجنون آخر في شيء!

***

(٤)

كان من العسير على حسن زيدان أن يشرح لخالته عواطف أسباب غيابه عنها كل تلك الفترة التي مضت، لم تصدق خالته من هول صدمتها ما حكاه لها عن الحادث الذي نجا منه بأعجوبة.

خرج في تلك الليلة المشئومة من القاهرة قبيل أذان الفجر، لم يكن قد تحصل على كفايته من النوم، ولم يكن يتوقع أن تخذله أقداح القهوة الثلاث التي احتساها قبل سفره إلى بلدته وتسلمه إلى النوم في خيانة واضحة، لم يعتد منها مثل تلك الخيانة.

كانت تفصله بضعة كيلومترات عن قريته (أبو طوالة) حين أخذته غفوة على هذا الطريق غير الممهد، لم يشعر إلا بسيارته وهي تصطدم بحوض الطلمبة المجاور للترعة لتصطدم رأسه بكل عنف بمقود السيارة، فقد حينها وعيه قبل أن يرى السيارة وهي تقفز في الهواء كراقصة باليه محترفة لتدور حول نفسها دورتين قبل أن تسقط برشاقة إلى ترعة مويس المجاورة.

كان الطريق خاليا تماما في ذلك الوقت المبكر من صباح الجمعة وكانت تلك ستصبح نهايته التي طالما تمناها لولا أن لمح أحد الفلاحين سيارة حسن زيدان التي ظهر منها بضعة ملليمترات فوق سطح المياه بالترعة في رحلة انزلاقها نحو القاع القريب ليترك ذلك الفلاح بهائمه ويقفز في الترعة بملابسه لينتشل حسن زيدان فاقد الوعي من السيارة ويوصله آخر بسيارته إلى المستشفى العام بالمدينة.

لم يعرف حسن زيدان من هذا الرجل الذي أنقذه ولم يحاول حتى الوصول إليه، لا يدري إن قابله هل سيشكره أم سيلعنه.

كثيرا ما تمنى خلال العامين الماضيين أن تكون نهايته قريبة ولا يطول العمر به في انتظارها، كان يبحث عن انتحار شرعي ينهي به دنياه دون أن يخسر آخرته، لم يكن فقط يدرك الطريقة المناسبة، يراوده شيطانه ليل نهار ليقنعه بالسير في مناطق خطرة فيخرج عليه قطاع الطرق في ظل انفلات أمني ليقاومهم فيقتلونه، وأحيانا يقنعه بالخروج في مظاهرات رافضة للحكم بدعوى نصرة المظلومين علّ قوات الأمن أن تقتنصه وينهوا بأنفسهم معاناته متحملين وزر قتله، ولكن كل محاولاته للحصول على انتحار شرعي بائت بالفشل، وما إن واتته فرصة الموت غرقا بغير قصد جاء هذا الفلاح بشهامته البغيضة وأنقذه من نهاية كان يتمناها!

قضى اليوم بليلته مع خالته طيبة القلب عواطف، وجائت ابنة خالته لترحب به هي وأطفالها بصخبهم وضجيجهم المحبب إلى نفسه، أكل بنهم

من طعام خالته الدسم طيب المذاق وزار قبر أمه، كان ينتظر هذه الزيارة الشهرية ليذهب إلى قبر أمه ويبثها نجواه، يبكي إلى جوار قبرها وقد عاد طفلا ينتحب لغياب أمه عنه، الطفل يظل بكاؤه مؤقتا لغياب أمه المؤقت إذ سرعان ما ترجع هي إليه، أما حسن زيدان فكان يؤلمه دائما أن أمه قد فارقته للأبد منذ ثمان سنوات حين قرر القدر ألا تعود إليه مرة ثانية وأن عليه أن يقنع نفسه أن خالته من الممكن أن تعوض جزءً ولو ضئيلا من غياب أمه التي أفتقد وقوفها إلى جواره في كل المآسي التي حدثت له بعد وفاتها والتي كالها القدر له بلا هوادة!

جلس في ردهة البيت الفسيحة ليستعيد بعضا من ذكريات الماضي بشكل جديد هذه المرة، بدأ التفكير في ذكريات أمه في بيت أختها التي كثيرا ما كانت تزورها في أجازاتها، داهمه الألم برأسه وكأن الوتد عاد لينغرس في رأسه، اعتاد ذلك الألم وأصبح يتلذذ به، أغمض عينيه لينزلق في نفقه المظلم هاربا إلى غرفته المظلمة يتحسس موجات صدى صوت أمه التي تتردد في المكان ليؤنس وحشته، تنتزعه دموعه المنسكبة فرحا بصوت أمه واشتياقه إليه من عزلته بغرفته المظلمة لتعيده عبر نفقه المظلم إلى دنيا الواقع، كلما هدئت نفسه كرر التجربة عائدا إلى جنته التي تزدحم بأصوات أمه الحنون ينعم بين موجاتها الصوتية حتى غلبه النعاس!

***

وقف أمام شقته القديمة في الطابق الرابع في بيت عائلته بمنيا القمح يحاول أن يقاوم ذلك الفضول الذي يتملكه لدخول تلك الشقة التي شهدت زواجه والتي ما زال يلعنها في صباحه ومساءه، لم يدخلها قط حسن زيدان منذ طلاقه لزوجته منذ عامين مضيا.

حسن زيدان يدرك جيدا أنه خلال سنواته الماضية لم ير نعيما وسعادة وراحة بال إلا في الفترة ما بين ولادته وحتى قبيل وفاة أمه، كانت وفاتها بمثابة أولى نكبات الدهر التي لم تلبث أن توالت بحماس بالغ وكأن بينه وبين الدهر ثأرا لم يكن يعلم به من ذي قبل!

عندما ماتت أمه لم يكن قد تزوج بعد، منذ عودته إلى مصر ليبدأ دراسته الجامعية وهو يعيش بمفرده في بيت أبيه، أما بقية أسرته فظلت في الكويت يكنزون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، لم يمر يوما بضائقة مالية كأقرانه بالجامعة، كان يجتهد كل الاجتهاد في دراسته في كلية التجارة حتى ينهي دراسته في أربع سنوات لا زيادة فيهن حتى يعود ثانية لأسرته في الكويت بشهادة جامعية تساعده على إيجاد عمل مناسب في بلاد الأثرياء العرب، يكفيه الثلاث سنوات الضائعة في كلية الصيدلة قبل أن يُفصَل لتكرار رسوبه ليلتحق بكلية التجارة.

لم يكن له إخوة من الذكور لينتظر موقفه من التجنيد، كل شيء كان مُرتَبا له للسفر بسرعة عائدا للبلد التي نشأ بها لولا أن تدخلت الأقدار بعنف لتغير كل خططه المستقبلية!

في النصف الدراسي الثاني من عامه الأخير بالجامعة عادت أمه جثة هامدة لتُدفَن في أرض الوطن، لم يخبروه باكتشافهم إصابتها بالسرطان، كان المرض بسط نفوذه على كامل جسدها إذ لم يكتشفوا المرض سوى في مراحله المتأخرة، كانت تلك الوفاة أول صدمة يتلقاها حسن زيدان في حياته المترفة الهانئة، كانت أمه بحنانها قريبة منه بروحها وإن فصلت بينهما آلاف الكيلومترات، في حضنها ينسى كل شيء، الوحيدة التي لم تعقد له محاكمات لمحاسبته على تعثره الدراسي، الوحيدة التي كانت تحنو عليه.

عادت الأسرة ليواروا جثة أمه الثرى وأبى أباه العودة إلى الكويت إلا بزوجة جديدة، وكانت تلك الصدمة التالية بعد وفاة أمه !

ولأن القدر كان يبتغي المغالاة في السخرية من حسن زيدان فاختار الأب (وفاء)، أرملة عاقر تزوجها أبوه بعدما أتمت الأم الراحلة أربعين يوما في قبرها، وفاء أرملة لم تتجاوز الثلاثين تتمتع بقدر مقبول من الجمال، يراها حسن زيدان قد طمعت في أرث من هذا الثري العجوز الذي يأمل في متعة أخيرة في زواج لن يدوم طويلا، اختار أبوه وفاء ليتذكر دائما حسن زيدان عدم وفاء أبيه لذكرى أمه الراحلة وسنوات الشقاء المشترك بينهما في بداية

حياتهما، أيقن حسن زيدان أن عودته إلى الكويت قد باتت مستحيلة، لن يقبل أن يرى في تلك البلد زوجة لأبيه خلاف أمه الراحلة.

أخته الوحيدة منار لم يكن لديها خيارا آخر فعادت مع أبيها وحاولت التأقلم مع تلك المتغيرات الأسرية الجديدة، وعلى الرغم من شجار حسن زيدان مع أبيه بسبب زواج الأخير إلا أن الأب لم يبخل على ابنه بأن منحه غيض من فيض ممتلكاته؛ إذ تنازل له عن البناية متعددة الطوابق بمنيا القمح ليتزوج بها الابن وزاد في كرمه بأن تنازل له عن الأرض المجاورة للمبنى شاسعة المساحة وأودع مبلغا فلكيا من المال – في تلك الفترة – في حساب ابنه البنكي، مائة ألف جنيه، مبلغ ضخم يبدأ به حسن زيدان حياته وقد اعتبر أبوه ذلك تعويضا عن فعلته التي طالما دافع عنها أنها لا تخالف شرعا أقره الله ورسوله.

لم يكن أبوه يسأل عليه إلا على فترات متباعدة من باب صلة الرحم فبادله الابن بالمثل، بدأ حسن زيدان حياته بالبحث الجاد عن عمل رغم عدم حاجته للمال ولكنه كان بحاجة لإثبات ذاته وقدرته على الاستقلال عن أسرته، عمل محاسبا بإحدى المدارس الخاصة بمدينته الصغيرة "منيا القمح"، تلك المدرسة التي منحته فرصة التعرف على سلمى وهدان.

سلمى وهدان، فتاة تنتمي للطبقة الوسطى، ملتزمة دينيا ذلك الالتزام الذي يميز أغلب فتيات الطبقة الوسطى بالأقاليم والذي يتمثل في حجاب

عصري وملابس فضفاضة بعض الشيء تخفي كافة تضاريس الجسد مع عدم استخدام أدوات التجميل على الإطلاق.

تبادلا الإعجاب لفترة لم تطل في مجتمع شرقي يفقد القدرة سريعا على التحكم بالألسنة مستغرقا في الغمز واللمز فتمت خطبتهما فزواجهما في وقت قصير نسبيا، قرر أبوه التكفل بكافة نفقات الزواج رغم رفض حسن زيدان ولكنه لم يستطع المقاومة أمام إصرار أبيه وترحيب أهل خطيبته.

ظن في زواجه من سلمى وهدان بداية جديدة لحياته وقد قرر القدر الابتسام له أخيرا، وازدادت سعادته حينما منَّ عليه القدر بعدم تأخر الإنجاب ليرزقه الله بيوسف بعد تسعة أشهر من زواجه، ولم تكد زوجته سلمى وهدان تنهي أيام الطمث حتى بدئت شهور الحمل في طفل آخر ليجيء كريم.

طفلان أتيا إلى الحياة الدنيا ليكونا بمثابة جناحين يحملان أباهما إلى الفردوس الأعلى من فرط سعادته في كل لحظة يقضيها إلى جوارهما، واستمرت هبات القدر ليجد حسن زيدان فرصة عمل أفضل في مدينة العاشر من رمضان البعيدة نسبيا عن بيته، ولكن المقابل المادي كان يستحق القليل من العناء، المال والبنون زينة الحياة الدنيا، ولن يرفض حسن زيدان أن تزداد حياته زينة على زينتها.

كان العمل الجديد مرهقا قليلا في بدايته إلى أن اعتاده حسن زيدان، ينهي عمله ويقضي ساعة ونيف في سفر حتى يعود لبيته فلا يفعل شيئا سوى اللعب

مع طفليه، تلك متعته الوحيدة، لم تستطع زوجته الموازنة على الإطلاق بين البيت والعمل فحصلت على أجازة (رعاية طفل) وكان ذلك محل تقدير بالغ من زوجها إذ لم يطلب منها ذلك صراحة وإن اكتفى بالتلميح له.

القدر شاء ألا تدوم سعادة تلك الأسرة لفترة طويلة!

في يوم من أيام عمله المرهق، تلقى حسن زيدان اتصالا من أحد الجيران يسأل عليه ولما أخبره أنه في عمله بمدينة العاشر من رمضان وليس في البيت طلب منه جاره أن يحضر فورا لمرض أصاب زوجته!

اتصل حسن زيدان بزوجته أكثر من مرة فلم تجبه، وكذلك فعل أهلها، ود لو كان باستطاعته الطيران إلى بيته قلقا على زوجته أو أن يسخر له الله عفريتا من الجن يحمله إلى هناك قبل أن يرتد إليه طرفه، ولكن لم يكن أمامه في دنيا الواقع غير العودة متنقلا بين وسائل المواصلات ليكتشف وقت رجوعه أن عودته كانت متأخرة للغاية!

***

لم تكن سلمى وهدان تدرك أن ذهابها للتسوق يوم الأثنين الأسود سيخلف مثل تلك الكارثة التي حدثت، تركت طفلاها نائمين وخرجت كعادتها.

تسوقت ما لذ وطاب من الخضر والفاكهة وعادت سعيدة بهذا التسوق لتجد الكارثة بانتظارها.

حريق هائل يلتهم الشقة والجيران والمطافيء وقوات الدفاع المدني يتكاتفون جميعا للقضاء على ألسنة النيران المتمردة التي تحاول التهام الشقة فالبيت بأكمله.

لم تسقط حينها سلمى وهدان فاقدة الوعي من هول المشهد!

لم تبك سلمى وهدان وتصرخ وتشج ملابسها!

لم تجر ناحية البيت لتلق بجسدها بين ألسنة النيران لتلحق بطفليها!

وقفت ساهمة لا تتفوه بكلمة والجيران يحاولون سؤالها عن الطفلين، أدرك الجيران المصيبة التي كانت في انتظار الجميع، لن تكون الخسائر مادية فقط يخفف من فداحتها كلمات تحث على الصبر، فقد كانت الخسائر بشرية أيضا!

عندما رأت سلمى وهدان جسدين صغيرين على محفة الإسعاف اخفتهما ملاءة بيضاء أدركت أخيرا حجم المصيبة وتأكدت من سهم القدر الغادر الذي قد غُرِسَ في قلبها مباشرة فسقطت حينها فقط فاقدة الوعي.

وصل حسن زيدان بعد انتهاء كل شيء .. !

وقف غير بعيد عن البيت يرقب أدخنة تتصاعد بكل عنفوانها من نوافذ الشقة بالطابق الرابع، دخان لحريق قد أُخمِدَ، الطفلان قد ماتا مثلما أفهموه بعد عناء، زوجته فاقدة النطق بشكل بدا مؤقتا، جثة شاحبة الوجه يتحرك بالكاد صدرها من أثر شهيق وزفير يربطها بالحياة!

– أنتِ كنتِ فين ساعتها ؟!

كانت تجلس ساهمة مرتدية ملابس الخروج، فهم أنها قد تركتهم في الشقة وحدهما يوم السوق كعادتها ونزلت تتسوق.

لم يراع أهلها الذين كانوا حولها في تلك اللحظات.

لم يشعر بنفسه وهو ينهال عليها ضربا وصفعا بكل غضبه وهي لا تحرك ساكنا.

لم يكن هذا بالنسبة إليه وقت حزن.

الغضب من إهمالها يدمره ليقتل الرجل المتحضر ويذبح الرجل المتدين داخله.

الإيمان بالقضاء والقدر رفاهية لم يتملكها في تلك اللحظات!

سيطر عليه إنسان الكهف الأول الذي لا يجد حرجا نفسيا أو دينيا في ضرب النساء ولم يكن في جسد سلمى وهدان روحٌ تدفعها للمقاومة أملا في البقاء على قيد الحياة!

لم تستطع الأيدي التي حالت بينه وبين زوجه أن تمنعه من الوصول إليها وفك ذلك الاشتباك أحادي الجانب.

بركان غضبه ثار بالفعل ولن يستطيعوا إخماد حممه فأبعدوا سلمى وهدان قبل أن تحترق بها.

***

لم يستطع حسن زيدان أن يسامح زوجه سلمى وهدان في موت طفليه، لم يستطع أن ينتزع من عقله فكرة أنها السبب الرئيسي في موتهما بسبب إهمالها، الإهمال حتى وإن لم يكن متعمدا ما إن يفضي إلى نتائج كارثية لا يمكن غفرانه.

طلقها حسن زيدان في اليوم الرابع من الوفاة وأعطاها مستحقاتها كاملة مثلما نص الشرع والعرف كلاهما بل زاد عليها.

عاد وحيدا لا أم ترعاه ولا أب يهتم بشأنه ولا زوجة يسكن إليها، ولا أبناء يستمد منهم أكسير الحياة، ولا أخت تفكر في الاطمئنان عليه إلا عبر فيس بوك!

هل كانت المودة والرحمة هما ما كانا يربطان بينه وبين سلمى وهدان ولم يكن حبا؟!

الإجابة القاطعة النهائية التي لا تحتمل تشكيكا وترتقي لمرتبة اليقين .. هي لا!

لم يتزوجها حسن زيدان إلا بعدما شغفها حبا، كان كل يوم يمضي إلى جوارها تزداد محبتها في قلبه حتى تملكت عقله وقلبه فلم يعد يرى أيا من النساء غيرها، صارت ملجأه وملاذه وسنده في مواجهة هذه الحياة.

ولكن الحقيقة التي كان يؤمن بها تماما هي أنه كان يحب طفليه أكثر من حبه لها!

قد يقول البعض أن المقارنة لا تصح بين حب المرء لأبنائه وبين حبه لأبويه أو زوجه، ولكن حسن زيدان لم يكن يؤمن بذلك!

لم يكن لأحد أن يحتل المرتبة الأولى في قلبه غير طفليه، وبقدر حبه لطفليه أصبح كرهه لسلمى وهدان التي كانت سببا في سلبه طفليه!

منذ تلك الحادثة الشنيعة وهو يسكن في القاهرة التي فر إلى زحامها بعدما وجد عملا هناك بإحدى مصانع الأغذية الشهيرة، لم يجد شجاعة في نفسه ليدخل شقته القديمة مرة ثانية طوال العامين الماضيين لتظل البناية بأكملها مهجورة لا يسكنها إلا القطط الضالة والفئران والحشرات ما كبر منها وما صغر.

وقف أمام بابها مترددا يخشى لحظة المواجهة التي يجبره عليها فضوله، بيد مرتعشة فتح الباب، الشقة مظلمة تماما من الداخل، أضاء مصباح الصالة لتبصر عيناه لأول مرة هذا السجن المتفحم الذي مات بداخله طفليه قبل أن يبلغ أكبرهما عامه الخامس، حوائط متفحمة وأثاث مبعثر تفحم أغلبه هو كل ما تبقي من ذلك اليوم المشئوم!

شعر بدفء دموعه وقد انسكبت من عينيه بغير إرادته، افترش الأرض وراح ينعم بالإنزلاق في نفقه المظلم، راح لينعم بصوت طفليه في لهوهما

ولعبهما معه، يتردد صدى أصواتهما في غرفته المظلمة فيتحسسه فيطرب قلبه، لم يرغب في الخروج من هذه الغرفة المظلمة، كيف له بالخروج وقد اكتفى بصوت الطفلين الذي أضاء قلبه للمرة الأولى منذ عامين مضيا جحيما مستعرا على روحه المعذبة؟!.

كيف له بالخروج تاركا ضحكاتهما وكلماتهما التي لا يحسنان نطقها بعد؟!

كيف له بالخروج وقد بدأ يستشعر صوتا لأحضانهما له؟!، بل بدأ يستشعر صوت صمتهما ذاته.

لم يدر كم مضي من وقت وهو في عزلته الاختيارية في حجرته المظلمة يستقبل قلبه المشتاق صدى صوتهما الذي تحتضن موجاته جدران الشقة، ولم يكن يشغله الوقت وقد ارتضى أن يظل بهذه الغرفة المظلمة ما بقي في هذه الحياة.

***

ضياء شمس الظهيرة وجد طريقه إلى الشقة مخترقا النوافذ وما تبقى من زجاجها بعدما تهشم معظمه ليوقظ حسن زيدان في صباح اليوم التالي، ألم قاتل وصداع مستمر يعتصر رأسه ويدفعه لتهشيمها في أقرب حائط حتى يستريح، نهض من نومته على الأرض وكل عضلة وعظمة بجسده تأن وتشتكي من شدة الألم.

بحث عن نظارته فوجدها أسفله وقد ألتوى ذراعاها من ثقل جسده فوقها، مع قليل من المجهود أعاد الذراعين لوضعهما الطبيعي وارتدى النظارة لينظر إلى ثيابه فراعه أطنان الأتربة والرماد التي علقت بها في نومته على الأرض، سقط نظره على باب المطبخ المتفحم حيث جائت شرارة النيران الأولى التي سلبته حياته الهانئة من خلف ذلك الباب فحول نظره عنه مغتما، دخل غرفة نومه التي لم تطلها النيران وانتقى من خزانة ثيابه بعضا من الثياب قد تناسبه بعدما فقد الكثير من وزنه خلال عامين، دخل ليغتسل مزيلا تلك الأتربة والرماد العالق بجسده وثيابه من أثر افتراشه الأرض طوال الليل.

المطبخ اللعين يجذبه عنوة إليه بعد خروجه من دورة المياة، بخطوات متثاقلة مضى نحو المطبخ، سمح لنفسه بالإنزلاق عبر نفقه المظلم حتى وصل لغرفته المظلمة.

ثوان مضت ثم علت أصوات صريخ وبكاء الطفلين واستغاثاتهما وقد انغلق عليهما باب المطبخ ويوسف الكبير يحاول فتحه عبثا، صريخهما يغرس أوتادا حديدية صدئة في أعماق قلبه.

حاول الفرار عائدا عبر نفقه المظلم هربا من هذا الجحيم المستعر ولم يستطع!

حاول مرارا الفرار لتنتهي كل مرة بالفشل ليظل محاصرا وسط الأصوات التي تعذبه، كل صرخة كانت بمثابة طعنة في عمق روحه فتطرحها أرضا.

ظل على هذا الحال لفترة طالت مستميتا في المقاومة محاولا الهرب من غرفته المظلمة، ولكن مقاومته لم تسفر عن شيء حتى تهالكت روحه وفقد الوعي!

ساعات مضت قبل أن يسترد وعيه، فتح عينيه مفزوعا من هول ما مر به ليفر هاربا من الشقة بملابسه التي تشبعت مرة ثانية بالأتربة والرماد عائدا إلى القاهرة التي طالما كرهها في الماضي أيام شبابه والتي وجد وسط زحامها وتلوث هوائها وضيق أفق ساكنيها ملاذا مناسبا يهرب فيه من أحزانه مثلما اعتاد في العامين الماضيين.

***

المكان: الاسكندرية.

الزمان: منذ خمسة عشر عاما.

– ما تقومي يا بنت (....) منك ليها.

جميع الأصباح تتشابه في ظلمتها حالكة السواد، لا يفلح أي نور للشمس في تبديد ظلامها، رب البيت طويل القامة عريض الصدر سليط اللسان ذو الشاب الكث الذي أطال طرفيه إلى أعلى في تفاخر يصر على أن يكون استيقاظهن على سباب فاحش يخدش حياء العاهرات في مواخيرهن إن سمعنه.

لم يعد في قوس صبر سميرة منزع، عنيدة هي ومتمردة رغم سنوات عمرها التي لم تتجاوز الأثنى عشر. اعتاد المعلم هلال السباعي أن يقترب بقسمات وجهه القبيحة وابتسامته اللزجة المتحرشة وأنفاسه كريهة الرائحة كبالوعة صرف صحي ليهمس في أذنيها وهو يربط على مؤخرتها قائلا:

– أصحى بقى يا عروسة.

تود لو أن بإمكانها البصق على وجهه لولا خشيتها من عقابه وبطشه، لا يمل التحرش بها كل صباح قبل أن يركل بقدمه سعاد ذات الثلاث سنوات النائمة في حضنها، ثم يوقظ أمها ويوقظ زوجته على سبابه الفاحش مع نسمات الفجر الأولى.

عقار من طابق واحد بُنيَ بالطوب الأبيض على أطراف إحدى القرى المطلة على الطريق الصحراوي عند مدخل الإسكندرية يسكنه هلال السباعي مع امرأتين إحداهما زوجته والأخرى رفيقته وفي ذات الوقت هي أم سميرة، أضف إليهم طفلة لم تتجاوز الثلاث سنوات منحوها اسم (سعاد).

هلال السباعي رجل منظم يؤمن بأهمية التخصص، ولذا تخصص هو وأجبر أهل بيته على التخصص في مهنة التسول فقط، لا سرقة ولا اختطاف ولا دعارة، جميع أهل بيته موظفون في شركة (هلال السباعي للتسول) وهو رئيس مجلس هذه الشركة وعضوها المنتدب، اقنع نفسه – ولم يكن في حاجة لذلك – بأن هذه المهنة هي أحل الحرام.

سميرة منذ صغرها وهي تعرف أن هلال السباعي ليس أبوها، تناديه – مجبرة – بالمعلم توقيرا وتفخيما له ولشاربه، عرفت أنها ابنة زنا وقد هربت أمها بها وهي لا تزال جنينا خوفا من أهلها، تركت الصعيد بأكمله وفرت إلى الأسكندرية ولم تجد من يحنو عليها غير هذا الرجل الذي استضافها بداره رغم أنف زوجته ورغم ممانعتها التي سرعان ما خبت أمام بطشه، منذ ذلك الحين وهما يعيشا في ذات البيت معه وتعاشره أم سهير معاشرة الأزواج بغير زواج ولو عرفي حتى تقبلت الزوجة الأولى الأمر وصارتا صديقتين لدودتين يتشاركان الهموم.

ماذا عن سعاد ؟!

تلك الفتاة ذات الثلاث سنوات اشتراها هلال السباعي من أحد معارفه منذ ما يقرب من العام ومنحها وظيفة في شركته لتساعد السيدتين في القيام بمتطلبات وظيفة التسول.

لم تتلق سميرة أي قدر من التعليم يمكنها من توصيف تلك الانتهاكات التي تتعرض لها على يد هلال السباعي، لم تسمع في سنواتها الماضية ووسط تلك البيئة المنعزلة عن لفظة (تحرش)، ولكن معرفة التوصيف لتلك الأفعال من عدمها لا يغير شيئا في مرارة الشعور بالانتهاك وأن جسدها مستباحا متى شاء هلال السباعي وكيف شاء، بل سقطت ورقة التوت الأخيرة التي تداري سوءة أمها حين رأت في عينيها صمت انكسار حين وقفت تتوارى خلف الباب وهي تشاهد هلال السباعي وهو يتحرش عابثا بجسد ابنتها في إحدى المرات لتكتفى ببعض قطرات من الدموع ذرفتهم ذلا وهوانا، لم تثر ثائرتها، لم تنقض عليه وتنبش بمخالبها لحمه النتن كأي أم تحترم فطرة الأمومة التي فطرت جميع الخلائق عليها.

لم تكن سميرة – رغم جمالها – تتعرض لأي تحرشات في الشارع، الجميع يأنف من ملامسة تلك الأثمال التي ترتديها برائحتها المنفرة، أما ضباع الشارع الضالة التي تمشي على قدمين فكانوا يعلمون علم اليقين أنها في حمى المعلم هلال السباعي الذي يباشر من بعيد عمالته للتيقن من كفائتهن في عملهم وليضمن عدم تعرضهن لأي متضايقات تتطلب تدخله.

***

(٥)

بعد تسعة أشهر من الحادث الذي تعرض له حسن زيدان:

لم يخبر حسن زيدان أحدا عن موهبته الجديدة التي وهبها أياه قاع الترعة مثلما يظن، أمضى الكثير من الوقت في رحلة البحث عن تفسير للأمر ولكن محاولات الوصول لتفسير محدد وقاطع جميعها بائت بالفشل لندرة المعطيات.

لم يكن يعلم أن محاولات الطبيب مجدي لبيب العشوائية لاستعادته من غيبوبته هي التي تسببت في منحه تلك المقدرة العجيبة، لن يعلم طوال حياته بتأثير شحنة الكهرباء التي أفرغها جهاز الصدمات الكهربائية في رأسه والتي ربما كانت كافية في وقت آخر لقتله!

لن تدرس حالته الدراسة الأكاديمية التي تمكنه – وتمكننا – من فهم آلية ما حدث، فما من أحد يعرف بما فعله مجدي لبيب وبأمر الشحنات الكهربائية

التي أفرغها في رأسه بدلا من صدره بواسطة جهاز الصدمات الكهربائية، لن يعرف أحدهم ما الذي حفز حاسة السمع في مخ حسن زيدان بهذه الدرجة، وهل مخ حسن زيدان يختلف جينيا وتشريحيا عن أي مخ آخر لتحدث فيه الشحنات الكهربائية مثل هذا التأثير!

هل لغرقه دخل بالأمر؟

هل غيبوبته شريكة فيما حدث له؟

هل لحقنة الأدرينالين تأثير تداخل مع الصدمات الكهربائية التي تلقاها في رأسه؟

من المعروف علميا استخدام الجلسات الكهربائية على المخ كإحدى طرق العلاج النفسي أو ما يعرف بـ"جلسات تنظيم إيقاع المخ"، الصدمات الكهربائية حينها تعمل على تغير حركة الهرمونات العصبية بين أغشية خلايا المخ مما يعيدها لحالة التوازن، فضلا على أنها تؤثر أو تعدل من عمل "الهيبوثلاموس"، و"الهيبوثلاموس" لمن لا يعرفونه هو المركز الأعلى الذي يتحكم في الجهاز العصبي اللاإرادي بفرعيه السمبثاوى والباراسمبثاوى، وكذلك هو أحد مراكز الانفعال في المخ، ويحتوى على أكبر نسبة من الموصلات العصبية الخاصة بالانفعال، والصدمات الكهربائية تعطي راحة وقتية لنشاط المخ الكهربائي بحيث يبدأ العمل ثانية بطريقة سوية. ولكن كل ذلك يتم تحت جرعات صغيرة للغاية من الكهرباء وتحت تأثير مخدر

وراخي للعضلات، فلا يمكن القياس عليه في حالة حسن زيدان إذ اختلفت المعطيات، لو أن مجدي لبيب الطبيب الأخرق الشاب قد قام بتسجيل البيانات الكاملة المطلوبة وقام بدراسة الحالة دراسة شافية وأجرى الآشعة والتحاليل المطلوبة قبل أن يعرِّض مخ حسن زيدان لشحنات الكهرباء تلك لربما أمكن حينها تفسير ما حدث بسهولة بالغة، ولكن مجدي لبيب لا يجوز اعتباره طبيبا من الأساس!

بعد فشله في الوصول لتفسير علمي مقنع، لم يشغل حسن زيدان نفسه كثيرا بكيفية اكتسابه هذه المقدرة العجيبة، فقط آمن بينه وبين نفسه أن هذه هبة منحتها أياها الجنيات اللاتي تسكن قاع الترعة واستراح لهذا التفسير الخيالي.

كيفية سماعه لتلك الأصوات رغم مضي فترات طويلة منذ صدورها كان الوصول لتفسير يرضيه سهلا، للصوت طبيعة موجية والقاعدة العلمية الأشهر تنص على أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، هو فقط قادر على سماع تردد موجات الصوت في المكان حيث ترددها الجدران، وهو ما يفسر عدم قدرته على استعادة الأصوات التي ترددت موجاتها في الأماكن المفتوحة، اقنع نفسه بذلك إذ فشل في إيجاد تفسير آخر، ربما يأتي في مستقبل غير بعيد العالم ج. ر. هربرت أو العالم صين شين يونج أو العالم أ. ح. الديدموني أو طالب بالمرحلة الإعدادية بأشمون بالمنوفية ليخترعوا جهازا

يقوم بتسجيل تلك الموجات الصوتية المترددة في الغرف المغلقة وفصلها واستعادة ما يشاءون منها مثلما يفعل حسن زيدان ومقدرته العجيبة بدون أي مساعدة.

عاد حسن زيدان إلى عمله بعد أجازة استمرت لشهر كامل مستعيدا حياته الماضية ليذق مرارة المعاناة من تأنيب ضميره في كل مرة يُجبِره فضوله اللعين على استراق السمع لما كان يُقَال حين يدخل مكان توقف الحديث فيه مع مَقْدِمه، يُوقِنْ حينها أن تلك ليست هبة منحها القدر إياه قدر ما كانت لعنة يتمنى يوما الخلاص منها.

أجبرته تلك المقدرة بعد فترة لم تكن بالطويلة من عودته لعمله على حِمْل الكثير من البغض والكراهية بقلبه لزملائه لو وزعت على أهل الأرض والسماء لوسعتهم إذ كانوا كثيرا ما يأكلون لحمه ميتة في غيابه، انكشف عنهم نعمة غطاء الستر!

استثني منهم اثنين لا ثالث لهما، علاء نبيل ويارا ناصر، الاثنان الذان لم يكونا يذكرانه بسوء على الإطلاق في غيابه، كان الأمر بالنسبة إليه أشبه بانكشاف الحجاب عن نفوس تُخفِي كراهية وبغضا خلف ابتسامات نفاقٍ لم تنطلِ عليه، اكتشف أن بعضهم يصفه بالمجنون وآخرون ينعتونه بالكئيب وغيرهم يدَّعون تصنّعه لتلك الحالة من الحزن والإكتئاب كي ينال التعاطف متهربا من ضغط العمل، لم يذق أحدهم مرارة النكبات المتتالية التي ذاقها ليلتمسوا له الأعذار!

كان يعتقد أن يارا ناصر زميلته قصيرة القامة قمحية البشرة بشوشة الوجه طفولية الملامح عريضة الابتسامة بغمازتيها الساحرتين تعامله بود بالغ لأنه الوحيد الذي لم يكن يتحرش بها بمعسول الكلام الذي ملت لزوجته ولا يعتبرها صيدا سهلا يقضي معه أوقاتا سعيدة متلاعبا بمشاعرها، كانت تصغره بستة أعوام فكان يراها أختا لا تختلف في شيء عن منار أخته وإن كانت – يارا ناصر – تكبرها ببضعة أعوام، ولم يكن باله رائقا لمثل هذا الهراء الذي يعشش في عقول أي رجل متزوج قبل الرجل الأعزب!

***

كانت تسلية حسن زيدان الوحيدة في تلك الفترة هي زيارة الكثير من الأماكن التي زخرت بالأحداث الهامة، كان يجلس ويستمتع بالإنزلاق في نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة ليتلصص على ما قيل في هذه الأماكن المغلقة، كانت مشاركاته على موقع "فيس بوك" شارحا ما حدث في تلك الأماكن لا تلقى الاهتمام المُرضي نظرا لعدد الأصدقاء القليل على صفحته، فلم يتعد معدل التفاعل بالتعليقات والإعجاب لمشاركاته العشر أشخاص فقط، حتى بدأت مشاركاته حول الجداليات المتعلقة بالأحداث الفنية والرياضية والسياسية – وخصوصا الأخيرة – تلقى تفاعلا متزايدا من الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء، مجتمع فيس بوك في الأساس يظهر انبهارا غير عادي بأي مشاركة يتحدث صاحبها بثقة العالم ببواطن الأمور، لتكتب أي هراء بثقة لتنل إعجاب الجميع، ابتعد تماما عن (أظن، يهيء لي، وفي رأيي) فتلك تفتح أبواب الجدال والتشكيك فيما تكتب، لا تناقش أحدا في التعليقات، فكلماتك ليست محلا للنقاش وإبداء الرأي، تلك وسائل يلجأ إليها الأشخاص العاديين، فما بالنا بحسن زيدان الذي يذهب إلى أي مكان يقصده وينزلق في نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة ليستمع بكلتا أذنيه للكلام كما قيل بلا عنعنه قد تؤدي لتحريف متعمد أو غير متعتمد.

مشاركاته صارت تحدث جدلا واسعا ويزداد معدل التفاعل معها ومعدل إضافته من قبل الكثيرين، وتضاعف الأمر بشدة حين بدأ بعض من الأطراف المشاركين في الأحداث التي تحدث عنها في تأكيد ما ينشره حسن زيدان على صفحته الشخصية!.

(٦)

اعتدل بعد سجدة طويلة أعقبت صلاة العشاء في تلك الزاوية الصغيرة أسفل البناية التي يسكن بها في القاهرة بالقرب من عمله، سجدة طويلة ناجى فيها ربه أن يهديه سبيل الرشاد في تلك العلاقة التي يقف على أعتابها مع يارا ناصر، يخشى بشدة المُضِّي قدما في تلك العلاقة خوفا من أن تنتهي نهاية مأساوية كسابقتها مع زوجته السابقة سلمى وهدان.

يخشى بشدة أن يتوغل في تلك العلاقة إلى أن تنتهي بزواج في ظاهره السعادة، أما في باطنه فيخشى أن تكون هذه الزيجة ما هي إلا شرك آخر ينصبه له القدر ويتربص به حتى يسقط بين شباكه ليتلقى ضربة جديدة تستقر في منتصف قلبه، هو لم يعد يحتمل ضربات القدر تلك التي تأتيه غدرا.

– إيه يا عم حسن بقى الكلام الغريب اللي أنت بتكتبه على صفحتك ع الفيس بوك اليومين دول!؟

لو كان قائل تلك العبارة شخصا آخر غير الشيخ منير راضي لأجابه حسن زيدان برد بارد يلجم تطفله، ولكنه كان يُكِّن ودا بالغا واحتراما يخالطه الكثير من التقدير للشيخ منير راضي إمام وخطيب تلك الزاوية الصغيرة، هذا الشيخ شديد بياض الوجه كثيف اللحية بدين الجسد قصير القامة، كان يمتلك عجيزة بدينة وجزع يكتظ بكرش عظيم وثديين متهدلين يستوجبان مشدات للصدر أسفل جلبابه الذي مهما بلغ اتساعه إلا أنه لا يخفي بدانته المفرطة!

أمعن حسن زيدان النظر في وجه منير راضي الذي يكبره بعشرة أعوام على الأقل والذي كلما نظر إلى وجهه رأي ضياء التقوى يُشِّعُ من قسماته ويكاد يشعر بأشعته تنفذ إلى قلبه، ابتسم له مجيبا:

– أبدا والله يا شيخ منير، دي شوية تخاريف كده، وبعدين ده شرف كبير ليا إن فضيلتك متابعني.

– فضيلتي إيه يا حسن بس .. احنا أخوات يا أخينا أنت.

قالها منير راضي رابطا على كتف حسن زيدان وتربع على أرض المسجد إلى جواره واستطرد سائلا:

– أنا بس عايز أفهم الكلام ده حد قاله لك يعني ولا استنتاجات ولا ده إيه بالظبط .. ده أنت يا اخينا بتتكلم بثقة غير طبيعية؟!

– والله يا شيخ منير .....

انتاب حسن زيدان التردد وتطرق إلى سجاد المسجد يُحصى شعيراته مفكرا في خطورة البوح بأسراره، يخشى أن يُخبِر أحدا عن سره وفي ذات الوقت يُثقِلَه ويُثقِلُ روحه هذا السر، لو أخبر زملاءه لظنوا به الظنون، وإن أخبر يارا ناصر لخشيته وابتعدت عنه، وإن أخبر علاء نبيل لاصطحبه الأخير لأحد الدجالين ليخرجوا عفريتا مزعوما من جسده ضربا بالسياط السودانية المنقوعة في الزيت المغلي!، أعاد حسن زيدان نظارته المنزلقة من فوق أرنبة أنفه إلى موضعها، قائلا وقد بان تردده من تلعثمه:

– هحكيلك يا شيخنا، بس أرجوك أوعى تفتكر إني مجنون أو ملبوس.

ربط منير راضي على كتفه يحثه على الحديث قائلا:

– فضفض يا حسن لأخيك .. أخوك منير شاف كتير ويقدر يفيدك ..

***

حسن زيدان لم يخبر الشيخ منير راضي بكل شيء، لم يك – من حسن حظه – أحمقا لهذه الدرجة، أخبره فقط أنه من حين لآخر يستمع إلى أصوات الذين كانوا في ذات المكان الذي يتواجد به، وزعم كاذبا أن ذلك يتم بغير إرادته، لم يصارحه أنه قد اكتسب القدرة على التحكم في مقدرته تلك فأصبح يصول ويجول بأريحية بين الموجات الصوتية باحثا عن مبتغاه.

– ده الكلام ده كله بعد الحادثة يا حسن ؟!

سأله الشيخ منير راضي وقد رسم بعنايه إمارات القلق على ملامحه بعد سماعه لما قاله حسن زيدان، قلق رجل طيب القلب يهتم لأمر محدثه وهو ما طمئن حسن زيدان فهزَّ رأسه أن نعم.

– جربت طيب تروح لدكتور مخ وأعصاب ؟!

تعجب حسن زيدان من سؤال منير راضي، كان أقصى ما يتوقعه من هذا الشيخ أن يرقيه الرقية الشرعية أو أن يعرض عليه أن يتلو ممسكا برأسه بعض آيات من القرآن الكريم أو على أسوأ تقدير أن يعرض خدماته أو خدمات غيره لإخراج تلك الشياطين من جسده ضربا بالعصا إن لم يكن بالحذاء!، ولكن الشيخ صدمه بسؤال لم يتوقعه منه وبدت الصدمة على وجه حسن زيدان جلية فاستدرك الشيخ معتذرا وقد ظن أن صدمة حسن زيدان لظنه أن ما قاله ما هو إلا استهزاء به:

– مش قصدي حاجة يا حسن يا ابني، أنا مش عايز أقولك إن دي هلاوس، بس جايز الرقدة تحت المية يوم الحادثة عملت ضرر في المخ ولا الأعصاب .. يووووه .. أنت فاهم قصدي طيب ؟!

تبسم حسن زيدان من فشل منير راضي في اختيار الكلمات المناسبة رغم كونه خطيبا مفوها لا يشق له غبار، أدرك حسن زيدان مقصده وأنه لم يقصد نعته بالجنون، بل أسعدته رغبة الشيخ في إرجاع تلك المقدرة لسبب عضوي وليس نفسي، فئة نادرة من رجال الدين الذين يعترفون بالطب ولا يرجعون الأمور لمس من تلك الشياطين التي لا تجد شيئا تفعله غير تلبس البشر كسوء استغلال منهم لوظيفتهم.

– أنا حاجز يا شيخنا عند دكتور آخر الإسبوع، هستأذنك بقى علشان هصحى للشغل من الفجرية ..

ودعه شيخه الذي أصر على احتضانه وتقبيله على أعتاب باب المسجد طالبا منه أن يطمئنه بعد زيارة الطبيب، رحل حسن زيدان شاعرا ببعضٍ من الراحة بعدما شارك جزءً من سره مع أحد ما، لم يكن يُدرِك حينها عواقب هذا الخطأ البالغ الذي ارتكبه للتو في حق نفسه!، لم يكن يدرك أن الثقة المطلقة في الآخرين هي خطأ جسيم يستوجب عقابا قاسيا لا رحمة فيه!

***

على ذلك المقهى المصمم على الطراز الحديث جلسا يأكلان بنهم أرغفة الشاورما بعد يوم شاق قضياه معا في توزيع عبوات كرتونية ثقيلة متكدسة بالإعانات لأسر فقيرة ليدخلا البهجة على بيوت تلك الأسر قبل مقدم شهر رمضان.

– بس إيه الحماس ده كله يا حسن ؟! ؟!

قالتها مبتهجة يارا ناصر بفم امتلأ بالشاورما متعجبة من حماس حسن زيدان تجاه النشاط الخيري، انفجر الأخير ضاحكا من صوتها الغريب الذي تسلل بالكاد من هذا الفم المتخم بالطعام مشيرا بإصبعه لبعض من الثومية التي انسابت على جانب فمها لتنفجر هي الأخرى في الضحك ساخرة من نفسها ومن شهيتها الكبيرة التي تتعارض مع صورة الأنثى المتحفظة التي تصدرها لهم في المكتب طوال ساعات العمل.

– أرجوك أوعى في يوم تركز مع بنت بتاكل شورما يا حسن.

قالتها ضاحكة وقد تخضب وجهها القمحي الجميل بحمرة الخجل ثم كررت تعجبها من حماسه، فقال ولم يكن قد توقف بعد عن ضحكاته:

– والله يا بنتي ..

– بنتك ؟!

قالتها رافعة حاجبا وخافضة آخر في استنكار ذامة شفتيها في غضب مصطنع يصل لأعتاب الدلال، انفجر حسن زيدان ثانية في ضحك متواصل قائلا وهو يضبط من وضع نظارته المنزلقة من فوق أرنبة أنفه:

– والله يا طنط (يورو) دي أول مرة أشارك في حاجة زي دي، أنا مش حاسس بالمجهود اللي عملته على قد ما حاسس بالطاقة الإيجابية اللي بتجري في دمي دلوقتي، يعني لو فيه حاجة تاني زي كده أنا أكيد معاكي فيها.. بس برضوا ما جاوبتنيش على سؤالي اللي سألتهولك الصبح .. هو أنتِ ليه غيرتي الكراتين قبل التوزيع ؟!

كان الود بينهما قد أوصلهما للمرحلة التي تحولت فيها يارا ناصر لـ(يورو) وحسن زيدان أصبح (أبا علي)، اعتدلت يارا ناصر في جلستها وقطبت جبينها في جدية لتخبره عن السر وراء ذلك الأمر.

تكره هي الطريقة التي تقوم بها بعض الجمعيات الخيرية المشهورة التي تتعاون معهم في توزيع الإعانات على الأسر الفقيرة والمستحقة للدعم، يقومون بوضع اسمهم وشعارهم على تلك الإعانات سواء كانت عينية أو مادية، ترى في اسم الجهة التي يطبعونها على العبوات أكياسا كانت أو كراتين انتقاصا من آدمية الأسر التي تتلقى تلك الإعانات أمام أطفالهم وإجبارا لهم على الشعور بفضلٍ لتلك الجمعيات عليهم، ناهيك عن الفضيحة، وكأنها تمسكة مضخم صوت وتنادي في الشارع (يا أهالي الحي الكرام، اسمعوا

وعوا .. هذه الأسرة الفقيرة الكادحة التي لا تجد قوت يومها ويعانون شظف العيش قد جئناهم نعايرهم ونمعن في إذلالهم وفضيحتهم حاملين فتات الصدقات التي تسد جوعهم وتمنع أحشائهم من أن تهضم نفسها بنفسها، هلا شكرتمونا وأكثرتم من الثناء)، في حين أن الأولى أن يعترفوا بالفضل لله وحده لا شريك له، فتضطر هي بعد استلام تلك الإعانات لاستبدال العبوة الخارجية بأخرى ليس عليها اسم الجمعية، وتفعل ذلك دون علمهم بالأمر!

كثيرا ما تنشغل يارا ناصر في غير أوقات العمل وفي أوقات العمل بأنشطتها الخيرية التطوعية، ترى أن تلك الأنشطة التي تقوم بها هي التي تجعل لحياتها قيمة مع بلوغها الثلاثين دون زواج.

رافضة هي لفكرة الزواج منذ سنوات مضت ولطالما رفضت أكثر من زميل بالعمل تقدم لخطبتها لأسباب لم تعلن عنها أبدا. وجدت سعادتها الشخصية في سعادة الآخرين فاكتفت بذلك، أبناؤها هم الأطفال في ملاجيء الأيتام ومستشفيات الأورام، أسرتها هي كل الأسر التي تتولى إيصال الإعانات إليهم، فرحة حفل زفافها تراها في زفاف فتاة شابة من أسرة فقيرة أكملت احتياجاتها، يُدرِك الجميع ممن يحيطون بها أن أعمال الخير هي كل ما يشغل وقتها بل وكثيرا ما كانت تنفق عليها من مالها الخاص.

متدينة كانت يارا ناصر ذلك التدين الذي يميز أعلى الطبقة الوسطى، ترتدي حجابا عصريا على بنطال من الجينز الضيق وفوقه قميص كثيرا ما

ينجح في إخفاء استدارة أردافها، تواظب على الصلاة في مواقيتها مرتدية إسدالا تحمله دائما في حقيبتها وتكثر من صيام السنن كما تحافظ على ابتسامة واسعة طفولية الطابع تحفر في خديها المكتنزين غمازتين ساحرتين تنجح في خداع الناظرين حول حقيقة عمرها الفعلي.

- حابب تكرر الموضوع تاني ؟!

سألته يارا ناصر فنظر حسن زيدان لها في بلاهة حقيقية وقد ظن لوهلة أنها تسأله عن رغبته في الزواج ثانية، يكره خُبثَ الإناث الفطري في تعمد السؤال بمثل تلك الصياغات التي تحتمل أكثر من معنى وأكثر من تأويل، تخضب وجهها بحُمرَة الخجل حين فهمت ما كان يدور بخلده فاستدركت سريعا قائلة:

- قصدي حابب يعني تكرر مشاوير الخير دي ؟!

- طبعا .. هو أنا هسيبك !

أجابها دون تفكير، احمر وجهها خجلا فوق خجله، لم يكن جوابه حبا في سعيه لعمل الخير قدر رغبته في الوجود إلى جوارها أكبر فترة ممكنة خارج الشركة، أدرك في نهاية اليوم بعدما أوصلها بسيارته الفيرنا المستعملة التي اشتراها مؤخرا بدلا من الغارقة أن قلبه في عراك مع عقله رافضا وداعها، رأي في عينيها المثل فاطمئن قلبه.

- سلام يا بابا حسن، هنزل أنا أركب زوبة بتاعتي.

قالتها مودعة إياه لتستقل سيارتها الفيات الصغيرة التي تسير بمعجزة عجز الميكانيكي الذي تتعامل معه عن تفسيرها!، لم يشعر حسن زيدان بنفسه وهو يمد يده لمصافحتها إلا حينما وجد يدها تعانق يده في ودٍ حقيقي، كانت المصافحة جديدة على كليهما بعدما اعتادها واعتادت نفسها لا تصافح الرجال، لم يدركا ذلك إلا وحرارة تتسرب من كفيهما لتنتشر في جسديهما مصحوبة برعشة خجل، استلت يدها خجلة وتمتمت بكلمات لم يفهما كلاهما وانصرفت سريعا وحسن زيدان يحملق بها أثناء رحيلها وقد فقد قدرته على النطق والحركة فظل واجما لدقائق قبل أن تتسع ابتسامته من فرط سعادته!

***

– أقولك الحشيش حلال تقولي حرام، حرام إزاي يا جدع وأنت بتشربه!

قالها جمال أبو هاشم ساخرا من خلف شاربه الكث الذي يحتل حيزا كبيرا من فراغ رأسه الضخم الأصلع تماما، احتقن وجه جليسه بالدماء في سخط واضح قائلا:

– زي ما بقول لمعاليك يا جمال بيه والله، أنا مش محشش ..

– ما تتظبط كده يا شيخ، الكلام اللي بتقوله ده معناه يا إما أنت مجنون يا إما محشش !

تلون وجه منير راضي من الأحمر سخطا للأسود غضبا من إهانات الضابط جمال أبو هاشم له المتتالية والمستمرة، يكره اليوم الذي يستدعيه فيه إلى مكتبه مُقلِلاً من قَدرِه ليحط من شأنه ويتسلى بالسخرية منه!

– حاسس كده إن الكلام مش عاجبك!

عنفه غاضبا جمال أبو هاشم وقد ضايقه صمت الشيخ، انبسطت ملامح منير راضي في لحظة خوفا من بطش غضبه قائلا في اعتذار:

– لا يا جمال باشا، ولتعفوا ولتصفحوا..

قالها منير راضي في ذل وخضوع تام وخوف لا اصطناع فيه مسترضيا جمال أبو هاشم، يحسن التقزم أمام جمال أبو هاشم، لم يجد لديه شيئا هذه المرة ينقله لجمال أبو هاشم غير ما سمعه من حسن زيدان بشأن مقدرته الغريبة على سماع الأصوات كتفسير لما يكتبه على صفحته الشخصية على موقع التواصل الإجتماعي "فيس بوك".

منذ عقود مضت وقد اعتاد استدعائه إلى مكتب الضابط المسئول بقسم الشرطة بالمنطقة ليخبره عن كل ما يدور في المنطقة بشكل عام وفي المسجد بشكل خاص، اعتبر الضابط أن ما حكاه الشيخ عن حسن زيدان لا يتعدى سخرية منه!

– قوم غور ياللا .. المرة الجاية مش عايز أنادي على فرج .. أنا عارفك بتعزه قوي!

ابتلع منير راضي إهانة الضابط بابتسامة باهتة مستكينة ذليلة ونهض طالبا الإذن في الانصراف فأشاح الضابط بيده في إهانة واضحة ليرحل منير راضي خارجا من قسم الشرطة حامدا الله على هذا الخروج الآمن الذي قد لا يتكرر في مرة قادمة!

***

المكان: الإسكندرية.

الزمان: منذ خمسة عشر عاما.

مشاعر سهير وهي على أعتاب مرحلة المراهقة كانت أشبه بماء فاتر، ثم جاء (النونو) وأوقد دستة من المشاعل ليوصل مشاعرها للغليان السريع!

النونو، ذلك الفتى البالغ الذي زادته قسوة الشارع سنوات فوق عمره، ليس به ما يجذب أي فتاة على الإطلاق، نادرات هن الفتيات اللاتي ينجذبن للفقر والبؤس وسوء التغذية!

مشرد هو بلا مأوى، الشارع بيته الكبير، يبيع المناديل ويمسح السيارات في إشارات المرور من أجل بضعة ملاليم، يعمل لصالح نفسه فقط، وذلك حاله منذ فراره من أهله قادما من أقاصي الصعيد.

ستة عشر عاما هي سنوات عمره، لم ير خيرا في أي يوم فيه، منذ ستة أعوام مضت وجد نفسه في موضع اتخاذ قرار؛ إما أن يتحمل قسوة أبيه وبطشه الغاشم أو أن يفر بلا وجهة مسبقة. فالحق والحق نقول أنه لم تصبه أي حيرة أو تردد حين اتخذ قراره، ولا نظلم أباه إن ثمّنا قرار النونو حين كان يومها يحمل اسم (عبد القادر).

ظلم الشارع وبطشه لم يختلف كثيرا عن ظلم الأب وبطشه، ولكن الفارق أن الشارع له مبرراته وقوانينه التي لا يحيد عنها، أفعال الشارع جميعها مبررة ومنطقية؛ وهو ما افتقدته أفاعيل الأب!

في الاسكندرية وجدهم بعد فترة ينادونه بالـ(نونو) بدلا من (عبد القادر) بسبب جسده الهزيل، ظنها سبة في البداية أو تحقيرا منه ولم يكن لديه خيار الرفض، ثم اعتاد الاسم إلى أن عرف مؤخرا أنه من باب التدليل له!

حياته كانت صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء حتى نبتت وسطها سميرة من العدم.

شجار هو أول ما جمع بينهما ثم جاءت المحبة التي تلي العداوة، بعد مضايقات من المديرين التنفيذين للشركات العاملة بالتسول على كورنيش البحر؛ اضطر لتغيير محل عمله إلى جوار (الاستاد)، مع أول تزاحم بينه وبين سميرة على نافذة إحدى السيارات في إشارات المرور؛ وقبل أن يحتدم التزاحم ليصير شجارا وجد راحة يد هلال السباعي تصفعه بكل عنفوانها على قفاه لتكومه أرضا تحت قدمي سميرة!

لم يكن النونو يمتلك عقلا يدفعه نحو التفكير في أسباب انجذاب سهير له فيما بعد، هل لنظرات الشفقة والتعاطف التي تسللت من عينيها علاقة بالأمر؟!، هل دموع قهره التي بكاها هي التي حركت مشاعرها؟!

في ليلته تلك بات يفكر في سهير ولم تفارق خياله الخصب الذي تحركه هرمونات المراهقة الفائرة كالحمم البركانية.

كان ذلك اليوم بداية لتقاربهما، ثم إعجاب متبادل، ثم الانفراد ببعضهما بعيد عن أعين المعلم هلال ليتشاركا خفية لقيمات الطعام ثم السجائر.

النونو ووده البالغ أحدثا شرخا في جدار القسوة التي أحاطت بحياتها، ذلك الجدار الذي رص لبناته بعناية بالغة هلال السباعي وتحرشاته المنحطة.

هلال السباعي بالطبع لم يكن بالسذاجة الكافية ليتم استغفاله من اثنين من المراهقين، تسلسل الشك إلى نفسه ليكتشف بعد وقت لم يطل ما بينهما، وكان عقابه للنونو مروعا لأقسى درجة. جسد الفتى في ذلك اليوم العصيب لم يكن به موضع لا ينزف، وكذلك باتت سميرة ليلتها وقد شاركت أمها هلال السباعي في عقابه لها إرضاء لسبعها.

***

(٧)

استيقظ حسن زيدان مفزوعا على أثر إيادٍ غليظة توقظه بعنف متعمد وتسحبه من فراشه بملابس النوم دون أن يعطوه الفرصة ليفهم الأمر، بدا من أجسامهم الممتلئة وشواربهم الكثة أنهم يتبعون جهة أمنية ما، هم يتماثلون تماما وكأن هناك مصنع ينتجهم بالدستة أو علهم يُقبلون بلجنة كشف الهيئة بناء على ضخامة أجسامهم أو ضخامة شواربهم، لا بد أن أسمائهم لا تخرج عن جعفر وعبد الغفار وعبد الجبار وأضف إليهم فرج!

ترك لهم حسن زيدان جسده مستسلما تسوقه الأيدي إذ أدرك أن المقاومة ليست في صالحه بل ستؤدي لمزيد من العنف غير المستحب مع جسد لم يتعاف بشكل تام من آثار الحادثة الأخيرة!

لم يضعوا عصابة على عينيه فاطمئن قلبه لعدم ذهابه لمبنى الأمن الوطني، تلك قوة من المباحث اخطئوا في الاسم والعنوان فقط نتيجة إصابة أحدهم

بالعشى الليلي وسينتهي الأمر في الصباح باعتذار من ضابط غامض ليدعونه يرحل بسلام حافي القدمين دون نظارة كما أخذوه!

حملته تلك القوة الأمنية إلى قسم الشرطة القريب كما توقع، احتجزوه وسط الكثير من المجرمين والخارجين على القانون والروائح العطنة، مثانة هؤلاء المحتجزين تعمل بكفاءة كما بدا له، كاد أن يتقيأ أكثر من مرة بعدما ألهبت أغشية معدته بشاعة الرائحة، لم يتعرض لإهانات من المحتجزين الذين لم يتكبدوا عناء استيقاظهم من النوم للترحيب اللائق بالضيف الجديد، النهار له عينان كما يقول العامة!

لم يتمكن من النوم حتى انبلج الصباح، كان عقله يعمل بكامل قوته محاولا تذكر أي جرم اقترفت يداه، ذهب ظنه إلى يارا ناصر ظانا أنها عضوة بجماعة محظورة دينيا رغم مظهرها المغرق في العلمانية المعتدلة، أو تراها ربما تتبع إحدى منظمات المجتمع المدني التي تتلقى أموالا من الخارج لا يرضى عنها النظام الحاكم، ورضى النظام الحاكم طالما كان شرطا أساسيا لقانونية تلقي الأموال من الخارج، لام نفسه بقسوة لمجرد تخيل فكرة أن الفتاة قصيرة القامة ذات الوجه الطفولي الذي تفيض البراءة منه أنهارا وصاحبة الابتسامة الطفولية بغمازتيها الساحرتين ربما تسعى للإضرار بالوطن وربما تُتهَم بالتخابر!

مع نسمات الصباح الأولى سحبوه كما تُسحب الماشية من غرفة احتجازه مكبلا بالأصفاد إلى مكتب أحد الضباط الذي خلا من صاحبه، كبلوا

معصمه بالأصفاد إلى قضبان حديدية لنافذة الغرفة الوحيدة المغلقة، ظل على هذا الوضع واقفا لخمس ساعات محاولا تذكر حقوقه التي كفلها له دستور لم يذهب للتصويت عليه، لا يستطيع من مكانه في أقصى الغرفة دون نظارته الطبية أن يقرأ اسم الضابط فوق المكتب، شعر حينها بالندم على عدم اجرائه لجراحة تصحيح إبصاره عن طريق الليزك، تلك الجراحة التي طالما خشيها مدفوعا بخوفه من أن يفقد بصره تماما على أثرها، نصف العمى في نظر الكثيرين – وهو منهم – أفضل من العمي الكلي.

دخل أحدهم الغرفة، جسد ضخم يرتدي بدلة سوداء لا يميز وجهه غير شارب كث لرأس أصلع، دخل وخلفه شخص يتعمد الانحناء حاملا حقيبة في تذلل واضح وانكسار يجيد تصنعه، أدرك أن ذا الجسد الضخم هو الضابط لا شك الذي قرر أن من الحكمة ألا يستكمل حسن زيدان نومه في شقته والأفضل للبلاد والعباد أن يبيت ليلته في قسم الشرطة!

لم يبد على الضابط أن حسن زيدان قد لفت انتباهه، كأنه قطعة أثاث بشري يزين المكتب ..

– باشا .. ؟

تنحنح حسن زيدان مناديا الضابط ظانا أنه سيلفت انتباهه ولكن الأخير لم يبد أي استجابة، شك حسن زيدان للحظة أنه حبيس بكابوس سيستيقظ منه في القريب العاجل، علم حسن زيدان أن الضابط قد بدأ تدخين سجائره حين تبين سحابة من الدخان المعبأ بالقليل من النيكوتين والكثير من القطران

تظلل الضابط لتصل رائحتها إلى أنفه، نهض الضابط من مكانه وتوجه ناحية حسن زيدان ثم نفث دخان سجائره في وجه الأخير قائلا:

- أنت إيه حكايتك بقى يا حيوان ؟!

سأله الضابط بصوت يتصف بالخشونة دل على مزاجه المتعكر ودلت ماسورة الصرف الصحي بروائحها الكريهة التي انفجرت في وجه حسن زيدان من فم الضابط على عدم تناول الأخير لإفطاره حتى تلك اللحظة، حسده حسن زيدان على كفاءة معدته الفارغة التي لا تبالي بأدخنة السجائر في الصباح، أو ربما شأنها شأن بقية الشعب تخشى بطش القيادات الأمنية!

- والله ما أعرف يا باشا ..

قالها حسن زيدان في برود ثم استطرد مخبرا إياه بأنهم انتزعوه بالأمس من بين أحضان فراشه الدافيء ولم يخبره أحد بالسبب حتى تلك اللحظة مستفسرا عن الاتهام الذي يستوجب إلقاء القبض عليه، مؤكدا على حقه الأصيل في أن يُوكِل محاميا للدفاع عنه وأن يعرف الاتهام الموجهة إليه.

- أنت عبيط يا حيوان أنت .. مش كده ؟!

قالها جمال أبو هاشم وصفع حسن زيدان على قفاه صفعة لا عنف فيها انتهكت كرامته وآلمت نفسه ولم تؤلم جسده!

- يا فندم أنا عايز أعرف أنا مقبوض عليَّ ليه؟! .. أكيد فيه حاجة غلط!

نظر له جمال أبو هاشم في ازدراء ثم سحب مقعدا خشبيا قريبا وجلس عليه معكوسا أمام حسن زيدان قائلا:

- عارف يا حسن ..

تحدث جمال أبو هاشم ثم صمت فجأة منتظرا وقع معرفته بإسم حسن زيدان عليه، رفع الأخير حاجبيه في دهشة عندما نطق جمال أبو هاشم بإسمه، تأكد حينها أنهم يقصدونه هو ولا أحد سواه حينما قبضوا عليه، استطرد جمال أبو هاشم قائلا:

- كان اللي بيبقى عليه أحكام في لعبة الشايب واحنا صغيرين كنا بنطلب منه يقف وضهره للحيطة ويعمل "حمرا يا قوطة" .. عايزك تنفذ بقى بدل ما أخليهم يفكوك وتقلدلي نوم العاذب..

تبادل الاثنان نظرات التحدي، لم يكن جمال أبو هاشم يعرف شيئا بعد عن تاريخ حسن زيدان وحياته المأساوية ليفهم سر نظرة التحدي التي أطلت من عينيه بدلا من الخوف الذي توقع جمال أبو هاشم رؤياه، الأخير قد أدرك أن الله قد استجاب دعاءه وسيرزقه انتحارا شرعيا، بإمكانه أن يفعل ما يحلو له إن ضمن أن النهاية ستكون بمقتله داخل قسم الشرطة حتى وإن طالت مدة تعذيبه.

- مش خايف وأنت قريب كده مني أشوطك برجلي أدلقك ع الأرض؟!

قالها حسن زيدان في تحدٍ.

– ياللا إيه اللي مانعك ؟! .. اتفضل ..

قالها جمال أبو هاشم في استهزاء وقد أثارت إعجابه محاولات حسن زيدان لإدعاء القوة.

– للأسف مفيش غيرنا في المكتب ومش معايا نضارتي، مش هعرف أشوفك وأنت متدهول ع الأرض وفي نفس الوقت مفيش حد موجود يشوف كرامتك وهي بتتبعزق!

ألقى جمال أبو هاشم ما تبقى من سيجارته على الأرض ودهسها بحذائه، نهض نافثا دخانها في وجه حسن زيدان في إهانة، ثم صفق بيديه قائلا في سخرية واضحة:

– حلوة الشجاعة يا حسن، أنت دخلت قلبي يا (أبو علي) بالكلمتين دول والله.

لم يتوقع حسن زيدان كلماته تلك، ظن أن نهوضه كان من أجل أن يفرغ في جسده الكثير من ساديته التي تركت بصمات واضحة على ملامحه، اقترب جمال أبو هاشم هامسا في أذن حسن زيدان:

– بس أنا هحبك أكثر لما تقولي مين اللي قالك الكلام اللي أنت كاتبه على صفحتك ده ؟!

***

كان القلق يتسلى بقضم أجزاء تتسع من روح يارا ناصر، تغيب حسن زيدان هذا الصباح دون أن يخبر أحدا على غير العادة، وازداد قلقها حين انتصف النهار ولم يظهر!

اتصلت به ألف مرة ومرة لتستمع إلى رنين الاتصال الرتيب آملة أن يجيبها دون جدوى إلى أن صار هاتفه مغلقا، تسحب مقعدها وتجلس إلى جوار علاء نبيل قائلة بصوت خافت كي لا يسمعها زملاؤها الذين لاحظوا دون عناء قلقها البالغ على حسن زيدان، جميعهم يتغامزون ويتلامزون حول علاقة سرية تجمعهما ويختلفون فقط حول كونها قد أفضت إلى تجاوزات لا أخلاقية أم لا.

– ما تعدي عليه بعد الشغل يا نبيل أحسن يكون جراله حاجة!

– فال الله ولا فالك يا يارا، تلاقيه كان سهران للصبح ولا حاجة بيحكّي مع حد كده ولا كده ..

قالها علاء نبيل ساخرا غامزا بعينه محاولا استفزازها، فلكزته في كتفه معنفة:

– ما تتلم يا نبيل وإلا أقسم بالله أقول لمراتك أنك بتتحرش بيا.

ارتسم خوف حقيقي على وجه علاء نبيل فشل في إخفاءه وظهر جليا في صوته حين قال:

– ما بخافشي على فكرة، وبعدين يا بنتي تلاقيه كان سهران وراحت عليه نومة بس مش أكتر ..

– يا عم ما كانشي سهران، ده كان داخل ينام الساعة حداشر ..

قالتها يارا ناصر في نفاد صبر قبل أن تبتر كلماتها حين أدركت أنها قد تسرعت بعفوية قليلا في حديثها، نظر لها علاء نبيل نظرة ساخرة من طراز "وكيف – عرفت – أنت – هذا – الأمر؟!"، حاولت الاستدراك محاولة تغيير دفة الحديث قائلة أنها فقط تشعر بالقلق من أن يكون قد أصابه مكروه وأن من الواجب عليه زيارته بعد العمل ليطمئنا عليه.

– يا يارا ما تقلقيش .. المشكلة أنا حماتي جايالي النهاردة بعد الشغل ومش هقدر أروح ولا يمين ولا شمال.

تجهم وجه يارا ناصر من برودة أعصاب علاء نبيل وعدم مشاركتها القلق على زميلها، نهضت معيدة مقعدها خلف مكتبها ثم تذكرت شيئا فعادت إليه وضربت بكفها على المكتب في عنف جذب انتباه الجميع، ثم انحنت قائلة بصوت خافت في توعد:

– براحتك يا نبيل، بس ورحمة أبويا، أقسم بالله صورتك وأنت بتبحلق في صدر سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة اللي اتصورت في الـ Annual meeting اللي فات هتبقى عند مراتك النهاردة على الفيس بوك، عايز ما تروحش لحسن وتكلمني من هناك براحتك خالص مش هقدر اجبرك.

احتقن وجه علاء نبيل بالدماء وقد أدرك من صوت يارا ناصر أنها ستنفذ تهديدها فزفر في غضب قائلا:

– خلاص يا يارا .. هحاول أروح بعد الشغل .. أبو دي شغلانة على أبو شكل حسن، على أبو شكل مراتي نفسها.

***

سحب حسن زيدان شهيقا عميقا طلبا لتهدئة أعصابه محاولا إدراك أبعاد الموقف الذي وجد نفسه فيه فجأة، لم يكن يصدق أن دولة بهذا الحجم تولي اهتماما بهذا القدر لكتابات شاب بائس ليس له قيمة تُذكَر في سوق المواطنين على أرض الواقع ينشر منشورات على صفحته الشخصية فلا يتابعه الملايين كغيره!

– يا فندم هي التخاريف اللي بكتبها دي طلعت مهمة قوي كده؟!

استدار جمال أبو هاشم له ليواجهه بوجه غاضب تكسوه الصرامة وقد انتفخت أوداجه وكاد الشرر أن يتطاير من عينيه حارقا حسن زيدان، ليصيح في وجهه بغضب:

– وترجعوا يا حيوان تقولوا الظباط لسانهم زفر! .. أنا لسه راجع من عمرة ومش عايز أزفر لساني .. أنت يا زفت يا جابر.

توقع حسن زيدان أن يكون جابر هو الشخص المسئول عن التحرش به وتمزيق ثيابه قبل اغتصابه، ولكن تراجع عن توقعه عندما دخل المكتب مهرولا أحد العساكر في زي مدني نحيل الجسد يعاني من الأنيميا وفقر الدم، أشار له جمال أبو هاشم أن يفك الأصفاد من يد حسن زيدان وذهب هو ليجلس على مقعده الوثير خلف مكتبه، امتثل العسكري مرتجفا للأمر، لو

كان الضباط يجلدونه بسياطهم كل ليلة ما بدا عليه كل ذلك الخوف منفذا الأمر في سرعة!

وقف حسن زيدان على قدميه الحافيتين يمسك معصمه الذي آلمه من ضغط الأصفاد عليه معلقا في قضبان نافذة الغرفة كل تلك الفترة، أشار له جمال أبو هاشم أن يجلس على أحد المقاعد أمامه وقد تبدلت ملامحه للهدوء فجأة مشعلا سيجارته!، تبدل طباع جمال أبو هاشم السريع يوحي بأنه مجنون بالفعل أو أنه من مواليد برج الجوزاء!

– مش محتاج أقولك يا أستاذ حسن إننا متأسفين على الأسلوب اللي جابوك بيه هنا..

قالها جمال أبو هاشم وابتسامة لزجة ترتسم على وجهه، نظر له حسن زيدان في عدم فهم!، هذا الضابط – لا شك – في حاجة لزيارة طبيب نفسي أو هو على وشك أن يفاجئه بأنهم يصورون نسخة سخيفة كالعادة من برنامج "الكاميرا الخفية"!

– لأ ما تستغربش.. أحنا بنفتح صفحة جديدة دلوقتي.. أنا عايزك تعتبرني صديق.. اعتبرني ياللا..

– أنت صديقي بالفعل يا ..

ضيق حسن زيدان حدقتيه محاولا التقاط اسم الضابط المحفور على لافتة خشبية صغيرة فوق المكتب ..

- يا جمال ..

قالها حسن زيدان مبتسما كي يستفزه، ولكن فاجأه جمال أبو هاشم إذ انفجر ضاحكا وقد أعجب بسخريته ثم قال:

- ماشي يا أبو علي.. مقبولة.. ده أنت شكلك ابن نكتة.

قالها وتوقف عن ضحكاته بغتة واستعادت قسمات وجهه صرامتها مرة ثانية قائلا:

- طيب بما إني "صديقي" و"جمال" حاف كده.. احكيلي عن السر اللي أنت بتقوله لحبايبك بس ..

***

بحث علاء نبيل عن حسن زيدان في كل ركن من الشقة فلم يجده، بل إنه جثا على ركبتيه كي يبحث عنه أسفل الفراش، وفتش في خزينة ثيابه فلم يجده، كان يحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة بناء على طلب صديقه، عندما طرق الباب أكثر من مرة ولم يتلق ردا استخدم تلك النسخة، كانت الشقة هادئة تماما، الغريب في الأمر أن هاتف حسن زيدان المحمول كان على المنضدة الصغيرة في غرفة نومه وقد فرغت بطاريته، أوصله بالشاحن وفتح الهاتف ليجد يارا ناصر وحدها قد اتصلت به ستة وسبعون مرة!

لم يكد يعيد الهاتف ثانية إلى المنضدة حتى وجد يارا ناصر تتصل على هاتف حسن زيدان للمرة السابعة والسبعون، لو كانت زوجته لما استطاع تحمل كل هذا الإزعاج الأنثوي!

– حسن .. أنت فين ؟!

أتاه صوتها تفضحه اللهفة حين رد على اتصالها فقاطعها علاء نبيل ضاحكا:

– اهدي يا يارا .. اهدي يا ماما .. أنا نبيل مش حسن.

حاصرته بأسئلتها عن حسن زيدان دون اعطائه الفرصة للرد على أي منها، انتظر حتى انتهت من أسئلتها جميعها، فتوقفت فجأة وصاحت في غضب:

– ما ترد يا نبيل.

– هو أنتِ مدياني فرصة! ! !

قالها غاضبا، ثم أخبرها أنه لم يجد حسن زيدان في الشقة بعدما بحث عنه في كل موضع حتى داخل غسالة الملابس أوتوماتيكية التشغيل، أخبرها عن هاتفه المحمول الذي فرغت بطاريته، أخبرها بظنونه حول احتمالية سفر صديقه إلى بلدته بالشرقية وأن الأمر لا يتعدى نسيانه لهاتفه المحمول وما أنساه إياه إلا الشيطان أن يذكره، لا يسعه التأكد من ذلك الاحتمال إذ لا يعرف تحديدا المكان الذي يقوم حسن زيدان بركن سيارته به.

– وبعدين يا نبيل .. لازم ندور عليه!

لم يعد في قوس صبر علاء نبيل منزع مع سماعه لطلب يارا ناصر فانفجر فيها صائحا:

– هو عيل تايه يا يارا؟! .. أنا همشي دلوقتي .. ولو عايزة تبعتي الصورة لمراتي ابعتيها .. كده كده اليوم ده باين إنه أسود من أوله.. ضربوا الأعور علي عينه بقى .. سلام ..

رماها بكلماته الغاضبة وقطع الاتصال دون انتظار رد أو تعقيب منها ورحل مسرعا قبل أن يتملك الغضب زوجته لتأخره كل ذلك الوقت فتجز عنقه في تلك الليلة بعد رحيل أمها إن قررت الرحيل!

***

ما إن تحدث جمال أبو هاشم سائلا عن السر المحبوس في صدر حسن زيدان حتى انزلق الأخير في لحظة إلى نفقه المظلم مسرعا نحو غرفته المظلمة، سبح عبر الموجات الصوتية التي تحتويها جدران مكتب جمال أبو هاشم، لم يلق بالا لأصوات الرجال الباكية التي تعرضت لتعذيب لم تتحمله رجولتهم، وتغافل عن أصوات النساء المنتحبات الباحثات عن ابنائهن أو أزواجهن الذين اختفوا قسريا أو أصوات النساء اللاتي قبض عليهن في جرائم متعددة أغلبهن من النساء الغارمات وقليلات هن محترفات الدعارة، كان يبحث وسط محيط متلاطم الأمواج الصوتية عن ذِكرٍ لاسمه حتى بلغ ضالته المنشودة، لم يكن الصوت بغريب عليه، توقع أن الشيخ اللعين منير راضي قد أفشى سره وكان بحاجة للتأكد فقط كي لا يظلمه، لم يكن حسن زيدان ليحتمل ظلمات الظلم يوم القيامة، لم يلق بالا للتفاصيل فانزلق عائدا عبر نفقه المظلم ليجد جمال أبو هاشم – وقد ارتسمت ابتسامة ظفر على وجهه – يُمعِنْ النظر في وجهه الذي تصبب بالعرق، لقد ألقى الضابط الخبيث بالطعم ليلتقطه بسذاجة حسن زيدان.

– عايز تعرف إيه يا جمال بيه؟!

– عايزك تحكيلي سرك ..

– أنا كنت بهزر مع الشيخ منير ..

قالها متلعثما حسن زيدان فرجع جمال أبو هاشم بمسند مقعده إلى الخلف ضاحكا ثم انحنى إلى الأمام قائلا في هدوء المنتصر وقد ضيق حدقتي عينيه في خبث:

– بس أنا ما جبتش سيرة شيخ اسمه منير راضي يا حسن !

ارتبك حسن زيدان وازداد العرق المتكاثف على جبهته قائلا بحلق جف تماما وقد ازداد تلعثمه:

– قصدي يعني هو الوحيد اللي كلمني عن اللي بكتبه على الفيس بوك فقولت أهزر معاه وأفهمه إن فيه سر وكده ..

لم يُعِرْ جمال أبو هاشم أي انتباه لكلمات حسن زيدان إذ انشغل بالبحث عن شيء ما في درج مكتبه، عثر على مبتغاه فأخرج ملفا ألقاه على المكتب أمام حسن زيدان قائلا:

– ده يا حسن تتبع المحمول بتاعك في الشهرين اللي فاتوا ..

– هو أنتوا بتتجسسوا عليا ؟!

لم يبد أن جمال أبو هاشم قد سمع اعتراضه أو التفت لتعلثماته، إن ارتبك أو غضب حسن زيدان فلن يتمكن من التحدث بغير تلعثم كعادته، تابع جمال أبو هاشم حصاره لحسن زيدان قائلا:

– اختار ألفاظك يا حسن، اسمها بنراقبك مش بنتجسس عليك، احنا عين الوطن الساهرة زي ما بيقولوا في الأفلام، أنت كنت موجود في كل

الأماكن اللي اتكلمت عنها، أنا مش عارف أنت بتنكر ليه أو خايف من إيه؟!.. أنت ما عملتش جريمة على فكرة، وإلا كان زمانك في الأمن الوطني مش قدامي!

ساد الصمت لثوان طالت تبادل كلاهما النظرات يحاولان وزن كلماتهما القادمة، كان جمال أبو هاشم يحاول توقع اللحظة التي سينهار فيها حسن زيدان ليعترف بما لديه، أما حسن زيدان فقد عصفت بعقله الظنون خوفا من أن يخضعونه لاختبارات معملية متحولا لفأر تجارب مسلوب الإرادة مثلما رسمت السينما والروايات في مخيلته، فأر تجارب متلعثم مجعد الشعر يرتدي نظارة طبية!، كان حسن زيدان يخشى ذلك بشدة.

– سيادتك عايز إيه بالظبط يا جمال بيه ؟!

– تثق فيَّ ومش هتندم.

– اللي الشيخ منير قالهولك صح.

قالها حسن زيدان في استسلام رغبة منه في إنتهاء هذا الجحيم الذي وجد نفسه في وسطه منذ الليلة الماضية، كان الإرهاق قد بلغ منه مبلغه، وكان يدرك أن الضابط الجالس أمامه قد نجح في حصاره جيدا واستعد لذلك أيما استعداد، فاجأه جمال أبو هاشم بأن اكتفى بهز رأسه في تفهم وابتسم ابتسامة ظفر قائلا في ود:

– قوم روح ولينا قعدة تانية.

- إيه؟!

قالها حسن زيدان مندهشا!، لم يكن يتوقع أن ينتهي الأمر بهذه البساطة، خشي أن يكون جمال أبو هاشم يتلاعب به أو أن هناك فخ جديد ينصب له شراكه، ولكن زادت دهشته مع كلمات جمال أبو هاشم التالية التي لم يكن يتوقعها:

- عسكري هيوصلك للبيت بعربيتي يا حسن، مفيش بوكس، ومش هروحك في تاكسي حافي وأنت مش شايف قدامك من غير نضارتك كده.. عد الجمايل يا .. (صديقي).

***

وقف حسن زيدان تحت المياه الدافئة لوقت طال يحاول إزالة ما طال بروحه وجسده من اتساخات في الساعات الماضية، مشتتا كان، يعصف التفكير بعقله بلا هوادة، تتزاحم التساؤلات بذهنه ولا يجد لها إجابة.

لا يدري ما الذي دفع منير راضي ذلك الشيخ الذي كان يحسبه على خير إلى الوشاية به لجمال أبو هاشم؟!

ما الحاجة لهذه المهانة التي تعرض لها من جمال أبو هاشم قبل أن يطلق سراحه؟!

ما الذي يريده منه جمال أبو هاشم في الأيام التالية؟!

أما السؤال الذي كان بمثابة وتد غرس في قلبه ولا يجد له إجابة، ما الجرم الذي ارتكبه في هذه الحياة ليعاقبه القدر بكل هذه القسوة؟!

هل يستمر القدر في معاقبته لعدم بره بأبيه؟!

لم يجد بنفسه يوما قدرة على مسامحة أبيه لزواجه من أمرأة أخرى جائت بنهديها وردفيها لتحتل مكانة أمه في قلب أبيه، لم ير من أمه تقصيرا نحو زوجها طوال سنواتها التي طالت في تلك الحياة!، هل كان عليه تَصنُّع الفرح والرضا بالأمر الواقع مثلما فعلت أخته منار؟! .. كان يلتمس لها الأعذار لأنها أنثى لا يصح لها ترك بيت أبيها والتمرد عليه، بل يرى أن القدر قد كافئها بزيجة من أمير ينتمي للعائلة المالكة هناك، لم يشعر بدموع قهره التي انسكبت من عينيه أسفل المياه إلا حين علا صوت نحيبه ونشيجه، جلس عاريا على أرض الحمام دافنا رأسه بين ركبتيه لاعنا اليوم الذي حملت به أمه.. يرجو نهاية لحياته لا يبدو أنها تقترب!

استيقظ حسن زيدان عند منتصف الليل من شدة الألم الذي ألمَّ برأسه، لم تكن تلك الآلام إلا بسبب الجوع الشديد مثلما توقع، جوع تكاد المعدة لشدته أن تهضم نفسها، هو اعتاد ذلك الألم الشديد كلما نَسِيَ الطعام ولطالما فعل!

نهض من فراشه وكل عضلة بجسده تأن وتشتكي إلى الله من شدة الإرهاق، ألقى في جوفه بقطعتين من (الجاتوه) الذي تعفن أغلبه أعقبهما بالكثير من المياه الغازية الغنية بالسكر، كان يحتاج لسكريات ترفع نسبة السكر بدمائه بأقصى سرعة، ثلاجته لم تخل يوما من قطع "الجاتوه" الذي يعده حسن زيدان إفطارا أو عشاء سريعا لا يحتاج لتجهيز!

مشى متثاقلا يسحب جسده معه حتى وصل إلى الأريكة المريحة بغرفة نومه فألقى جسده عليها من فرط الإرهاق، نظر لشاشة هاتفه المحمول التي لا تفتأ تضيء أمامه على المنضدة لتنبهه لوجود اتصال قادم وقد فعَّل الوضع الصامت منذ عودته من قسم الشرطة طلبا للهدوء، ظهر له على الشاشة عبارة (مكالمات لم يرد عليها +٩٩)، لم يهتم بمعرفة الذين حاولوا الاتصال به، وقبل أن يعيد الهاتف ثانية إلى المنضدة أنارت شاشته بصورة يارا ناصر بابتسامتها الطفولية الواسعة وغمازتيها الساحرتين التي لم تمل للحظة الاتصال به!

- حسن ؟!

أتاه صوتها يحمل لهفة وسعادة أزالت آلامه النفسية والجسدية جميعها، يسأل نفسه إن كان صوتها سيتكدس بكل تلك المشاعر العاطفية الجياشة إن كانا مرتبطين في تلك اللحظة أم سيحمل غضبا جارفا وتوبيخا لا يُبقي ولا يذر لظنها به أنه يتجاهلها عامدا منذ الصباح؟!

طمئنها على نفسه وعلى صحته ثم حكى لها ما حدث له في قسم الشرطة دون الإفصاح عن الأسباب الحقيقية بعدما أفهمها أن الأمن الوطني قد أجروا تحقيقا معه حول كتاباته الأخيرة على صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك.

– ما تسيبك من وجع قلب السياسة يا حسن، ما تدخلش نفسك في مشاكل..

ابتسم حسن زيدان رغما عنه بسبب مطلب يارا ناصر، ذكرته بأمه رحمها الله التي كانت تردد نفس الكلمات بنفس القلق عبر الهاتف من الكويت أيام الحراك السياسي الذي شهدته البلاد منذ نهايات عام ٢٠٠٥، كان حسن زيدان في تلك الآونة ثائرا بالفطرة كبقية جيله مدفوعا بحماس المراهقة، وبعدما استقرت البلاد وتوقفت المظاهرات والمسيرات الصاخبة وعادت البلاد عبر آلة زمن غير مرئية إلى ما قبل عام ٢٠٠٥ قرر أن يعتزل السياسة تماما وجميع أخبارها لوقت طال بعدها، انفرجت أساريره رغم قسوة اليوم المنصرم حين أدرك أن هناك على هذه الأرض من يهتم بشأنه!

يارا ناصر تثبت له مع مضي الأيام أنه لم يعد وحيدا كما كان من قبل، تثبت له أن هناك من يستحق أن يحيا لأجله على هذه الأرض.

***

(٨)

بعد ستة أشهر من مقابلة حسن زيدان لجمال أبو هاشم:

الأيام سريعا ما أوضحت مراد جمال أبو هاشم من حسن زيدان.

لا زال الأخير يتذكر جيدا المرة الأولى لاصطحاب جمال أبو هاشم له إلى مسرح جريمة، ذلك كان التعاون الذي أراده جمال أبو هاشم، يصطحبونه معهم إلى مسرح الجريمة ليستمع لأقوال الجاني وهو يشرح لهم كيف ارتكب جريمته، لم يكن أحد من القوة الأمنية يعرف شيئا عن هذا الشاب ذي العوينات سميكة الإطار الذي يرافق جمال أبو هاشم.

بعضهم تذكر تلك الليلة المشئومة التي قضاها حسن زيدان في قسم الشرطة فيتعجبون من تلك المعاملة المغلفة بكثير من الاحترام التي يلقاها من جمال أبو هاشم في وقتهم الحالي!، لا يعرفون لذلك سببا منطقيا!

يظل حسن زيدان صامتا في كل مرة حتى نهاية الشرح الذي يقوم به الجاني ثم يختلي بجمال أبو هاشم ليتبادلا حديثا هامسا لا يسمعه أحد ثم ينصرف، أمين الشرطة عبد الجبار الجعفري يُقسِم لبقية العساكر ويغلظ القسم أن هذا الشاب دجال يُسَخِّرُ الجن لمساعدته ومن ثم مساعدة جمال أبو هاشم الذي يُرهِب الجن بشاربه الكث وصلعته اللامعة، بل أفاض لهم عبد الجبار الجعفري ذات مرة بشرح الكيفية إذ قال أن هذا الشاب يبعث قرينه ليُجَندِل قرين الضحية ويتسجوبه ثم يعود إلى هذا الشاب ليخبره بكل شيء!

– وهو قرين القتيل هيفضل قاعد ليه يا جعفري؟! .. التربة ضيقة ومش سايعاه!

يقولها زميله مندهشا فيزجره عبد الجبار الجعفري بنظرات ملتهبة محذرا من الاستهزاء بالجان، ثم يؤكد في جدية وثقة أن القرين لا يغادر مكان الجريمة إلا بعد القبض على الجاني.

كانت خطوات حسن زيدان مترددة رهبة في المرة الأولى، قضى جل حياته بين الأرقام ولم ير يوما جثة أو دماء متناثرة، حتى جثتا طفليه لم يقو على رؤيتهما.

في مرته الأولى حين سمع الموجات الصوتية تردد استغاثات القتيل تذكر طفليه ففاضت عيناه بدموعه باكيا وسط دهشة الحاضرين الذين ظنوا أنه تأثر بما حدث في الجريمة بمشاعره المرهفة التي لم تعتد مثلهم بشاعة شرور بني البشر!

كان جمال أبو هاشم يطلب منه فقط أن يتواجد ليستمع إلى اعترافات الجاني ثم يطابقها بدلالات الأصوات التي يتردد صداها في المكان، أحيانا كثيرة كانت تتم جرائم كاملة في هدوء ودون أن يصدر صوت واحد سوى أنات الضحية في نزعها الأخير وأحيانا أخرى تتم الجريمة في أماكن مفتوحة انطلق صدى موجاتها الصوتية في الفراغ المحيط وما ارتدت ثانية، مع الوقت عرف جمال أبو هاشم القضايا التي تستدعي حضور حسن زيدان، والقضايا التي يكون فيها غير ذي نفع.

يتطلب الأمر من حسن زيدان تركيزا شديدا وبذل مجهود خارق وسط محيط من الطاقة السلبية المتخم بها المكان، لم يكن جمال أبو هاشم يضغط عليه، لن ينسى تلك المرة التي فقد حسن زيدان فيها وعيه وقد سال خيطان من الدماء من فتحتي أنفه، يحاول جمال أبو هاشم أن يحافظ على الدجاجة التي تبيض له ذهبا ويخشى أن يدفعه الطمع يوما لذبحها!

***

اعتاد حسن زيدان في كل مرة أن يُخبِر جمال أبو هاشم بالحقيقة، اعتبر ما يقوم به نوعا من فعل الخيرات التي يسعى إليها مثلما يفعل مع يارا ناصر، الفرق أن مع جمال أبو هاشم لم يكن يشعر بنوع من الرياء، كان يفعل الخير من أجل الخير لا من أجل نظرات الإعجاب التي يراها تتقافز من عيني يارا ناصر، كان في حاجة للقليل من الإثارة التي تغير من مذاق حياته الرتيبة الكئيبة بمللها المبالغ فيه التي لم تختلف كثيرا عن مذاق مياه صنبور صدأ في منتصف يونيو!

بعد فترة لم تطل، بدأ حسن زيدان تغمره سعادة أكبر لاعتقاده بأنه يقوم بدور نصير العدالة محاولا قدر جهده إحداث توازن في ميزانها المائل أغلب الوقت ناحية الظلم، بل اعتقد الطفل داخله بأنه قد آن لمصر أن يعيش بها بطل قومي في عصرها الحديث قد تروى حكايته في يوم ما أو يتناولها أحدهم في سلسلة قصص مصورة تمجد دوره كما يفعلون في الولايات المتحدة، بطل قومي مصري معاصر يرتدي نظارة سميكة الإطار تصر على الإنزلاق من فوق أرنبة أنفه، لربما يسمي المؤلف سلسلة قصصه المصورة بـ"السَّمَّاع" كثير استراق السمع.

يتذكر حسن زيدان دائما المرة الوحيدة الي كذب فيها على جمال أبو هاشم ظنا منه أنه يفعل الصواب، كانت تلك المرة عندما رأى زوج يشرح لهم لِمَ قتل زوجته وكيف قتلها، حدثهم الزوج القاتل أن ذلك كان بسبب خلافَ

مادي تطور لشجار فخنقها في زروة غضبه، حينما انزلق حسن زيدان عبر نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة سمع موجات صوتية تُردِد كثيرا من الأحاديث عن خيانة زوجية وأدلة حاصر الزوج بها زوجته على خيانتها له في فراش الزوجية، انتهاء باعترافات ندم واستجداء من الزوجة الزانية فانحباس صوت بعد خنق.

تفهم حينها حسن زيدان رغبة الزوج في عدم افتضاح أمر زوجته وقد ثأر لشرفه بالفعل في ظل غياب الشهود على واقعة الزنا أو القتل، أن يقول الناس عنه أنه قاتل مجنون خير من أن يتندر الناس في أحاديثهم بعلاقات زوجته واتهامات له بضعفه وعدم قدرته على سد احتياجاتها، في ذلك اليوم صدق حسن زيدان دون تردد أو تفكير على كلام الزوج حفاظا على مستقبل طفل لا ذنب له فيما اقترفت أمه من خطايا، سيظل المجتمع الظالم يُقَرِّع الطفل بجرم أمه حتى وفاته.

حسن زيدان ظل مستمرا في تعاونه مع جمال أبو هاشم متطوعا سعيدا فخورا بدوره الذي يقوم به حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان.

حضر حسن زيدان في ذلك اليوم متأخرا إلى مسرح الجريمة فلم يستطع أن يستفهم من جمال أبو هاشم عن ملابسات الجريمة التي كانت في انتظاره، عندما وصل كان الجاني قد انتهى من الشرح فطلب منه جمال أبو هاشم أن يعيد ما حكاه من البداية.

كان الجاني هذه المرة شخصا بدينا نامي اللحية أصلع الرأس يتناثر ما تبقى من شعره الأشعث على جانبي رأسه ويبدو عليه أنه لا يختلف في شيء عن أي بلطجي أو حشاش، كان أقرب إلى غوريللا صلعاء منفرة الخلقة، يسكن بيتا فقيرا في منطقة شعبية فقيرة تعج بأمثاله من الفقراء، بدأ الرجل يحكي ما حدث للمرة الثانية.

أخبرهم لمرة قد تكون العاشرة أنه كان تحت تأثير المخدرات حين قتل زوجته وأطفاله الثلاث دون وعي منه، وجهه وجسده الذي لا يستره إلا ملابسه الداخلية التي تلوثت بدماء أسرته كان باديا عليهم أنه قد تعرض لكل أنواع البطش المفرط من أهالي المنطقة قبل أن تكمل الشرطة ما ابتدئه الأهالي، يسمع حسن زيدان ما حكاه القاتل الفاجر فيبصق الأول بصوت مسموع في بغض على الأرض لينظر له القاتل شزرا في توعد على بصقة الإهانة التي بصقها حسن زيدان ولاضطراره لإعادة روايته أمام هذا الشاب البائس الذي لا يبدو من هيئته أنه يتبع جهاز الشرطة، سحب حسن زيدان شهيقا عميقا وزفره ببطء كي تهدأ نفسه أولا ثم انزلق في نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة حيث كانت في انتظاره مفاجأة تفوح منها روائح القذارة!

***

ازداد انقباض قلب حسن زيدان مع كل موجة صوتية تخترق أذنيه، لم يكن ما حدث يمت بصلة لما حكاه القاتل النجس!

هذا الرجل بالفعل كان تحت تأثير المخدرات ولكن لم يكن حسن زيدان يتخيل يوما أن تُجَرِدْ المخدرات رجلا من أبوته!

القاتل النجس الذي لم يكن يستحق أبوته قرر أن يغتصب أبنته!

جسدها الذي لم يستكمل أنوثته بعد والذي كان للذكورة أقرب رأى هذا السافل فيه شيئا أغراه باغتصابها!

الأم ساقها القدر لتحضر هذا الفعل الدنيء الذي يليق بالكلاب الضالة حين عادت فجأة من الخارج وقد شاءت الأقدار أن تكتشف الأمر، هددته الزوجة المكلومة بفضح أمره في المنطقة وتجمع طفلاه الآخران على صوت أمهم من سوء حظهما، قرر الأب النجس أن يدفن سره ويذبحهم جميعا قبل أن يفتضح أمره ليحاول أن ينقع أهالي المنطقة والشرطة لاحقا أنه فوجيء بالأمر حين عودته من الخارج!

أهالي المنطقة – لحسن حظ الأرواح البريئة التي أزهقت – كانوا قد سمعوا شجاره مع زوجته فلم تصمد أكذوبته تلك أمامهم فزعم أمام الشرطة أنه كان مغيبا تحت تأثير المخدرات واتهم زوجته القتيلة بخيانتها له.

صدمة أصابت نفس حسن زيدان لما سمعه، لم تتحمل روحه هذا المستوي البشع من قذارة النفس البشرية، حاول الهرب من غرفته المظلمة عبر نفقه المظلم عائدا لمسرح الجريمة البشعة، ولكن كل محاولات حسن زيدان للعودة بائت بالفشل، لم يجد نفق عودته المظلم!

ظل حبيسا بغرفته المظلمة محاصرا بأصوات استغاثات الطفلة التي كانت تستنجد بأمها وقت اغتصابها قبل أن تفقد الوعي، وتعذبه أصوات الطفلين الآخرين المستغيثة بأي مغيث يهب لنجدتهم قبل ذبحهما كما تذبح البهائم بغير رحمة أو شفقة، بل كان في قلب القصاب دائما رحمة تجاه بهائمه قبل الذبح في حين خلا قلب هذا الأب النجس – إن كان له قلب – من تلك المشاعر الفطرية.

ظل حسن زيدان يتعذب وسط تلك الموجات الصوتية لاستغاثات الأطفال وصراخهم لتخطلت بأصواتهم أصوات طفليه وقت الحريق، لم يدر كم استمر محاصرا في هذا العذاب المقيم، لو أنه أُلقي في قاع سقر ما ذاق مثل هذا العذاب في شدته وألمه، فقد حسن زيدان الوعي تماما وسقط على الأرض وكأنه دمية ماريونيت قُطِعَت حبالها ولكنه كان دمية تنزف بغزارة من أنفها!

***

(٩)

الغرفة كانت هادئة تماما لا صوت فيها يسمع غير صوت جهاز التنفس الاصطناعي الرتيب وصوت جهاز رسم القلب، يرقد حسن زيدان ممدا على فراشه بغرفة العناية المركزة لا يعلم أحد ما أصابه، أعادوه بمعجزة من على أعتاب حافة الموت مرتين بمساعدة من جهاز الصدمات الكهربائية بعدما أزداد معدل نبضات قلبه فجأة قبل أن يختفي تماما.

ظن جمال أبو هاشم في باديء الأمر أنه قد سقط في ذلك الوقت – بفعل الإرهاق – مغشيا عليه وأنه سرعان ما يستفيق ولكن حسن زيدان خذله في ذلك.

استمر حسن زيدان حبيسا بين أسوار غيبوبته شاهقة الارتفاع لثلاثة أيام مختفيا بوعيه عن العالم المحيط به لا يعرف أحد بما جرى له، يتلقى أعلى مستويات الإهتمام من الطاقم الطبي بتعليمات من إدارة المستشفى إثر توصيات من جمال أبو هاشم الذي يعتصره القلق خوفا عليه، ليس خوفا من

وفاته ولكن خوفا من تبعاتها، هو من أحضره إلى المستشفى بنفسه ويخشى إن تُوفِّيَ أن يكون مطالبا بتفسير الأمر إلى قياداته الذين لا يعلمون أي شيء بشأن مساعدات حسن زيدان له، إن مات الأخير فربما يجد جمال أبو هاشم نفسه محاصرا باتهامات من الصحافة والإعلام بقتل ذل الشاب نتيجة التعذيب، وسيجد الإعلام جنازة جديدة ليشبعون فيها رغباتهم الدفينة في لطم خدودهم وشق جيوبهم تحسرا على بطش الأجهزة الأمنية بالشعب طمعا – كعادتهم – في زيادة نسبة المشاهدة لا قلقا على سلامة المواطنين!

لن ينقذ رقبته من مقصلة الرأي العام أي تقارير يصدرها الطب الشرعي نافيا التعذيب، لم يعد الرأي العام يثق كثيرا في تقارير الطب الشرعي منذ ثورة الخامس والعشرين من يناير!

تلقى جمال أبو هاشم اتصالا هاتفيا يُبشِّرَه باستفاقة حسن زيدان فشعر أن الحياة قد عادت إلى أوصاله، ترك كل شيء وراءه وهرع إلى المستشفى غير عالم أن مفاجأة أخرى كانت في انتظاره!

***

عندما وصل جمال أبو هاشم لاهثا إلى العناية المركزة كانت المفاجأة تنتظره لتصفعه على وجهه!

اختفى حسن زيدان!

ظن في باديء الأمر أنهم قد نقلوه إلى غرفة أخرى خارج العناية المركزة ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد أخبره الأطباء أنه حين استرد وعيه كانت وظائفه الحيوية جميعها في حالة ممتازة، ولما لم يكن مقبوضا عليه باتهام معين أو هناك تشديدات أمنية عليه فلم يستطيعوا منعه حين ألحَّ في الخروج من المستشفى مع رفضه البقاء لفترة أخرى تحت الملاحظة.

كاد الشرر الذي يتطاير من عيني جمال أبو هاشم أن يحرق الأطباء والتمريض والمستشفى بمن فيها وهو يستمع لكلماتهم قبل أن ينفجر فيهم غاضبا ومعنفا وكأن ثورة غضبه تلك لن تهمد، انصرف من المستشفى يجهر بالسباب للأطباء وأهلهم أجمعين وكان لأمهاتهم نصيب وافر من هذا السباب القبيح.

اتصل بهاتف حسن زيدان والذي لغبائه قد تركه مع متعلقاته فلم يتلق ردا، طائرا في جنون يطوي الطريق تحت إطارات سيارته نحو بيت حسن زيدان، طرق الباب مرات ومرات حتى كاد أن يتهشم ولم يتلق ردا، أدرك جمال أبو هاشم أن حسن زيدان قرر أن يختفي دون أن يأخذ موافقته على ذلك، كان كذريات ملح ذابت في ماء فاختفت ولم تترك لها أثرا!

أسبوع مر ولم يظهر حسن زيدان!

كان جمال أبو هاشم يعتبره من ممتلكاته الشخصية، عبدا لا يحق له التصرف من تلقاء نفسه دون إذنه وليس له إلا الامتثال لأوامره، عروسة مريونيت لا يسمح لها بمتزيق الخيوط التي تربطها بيد محركها، لن يسمح لدجاجته التي تبيض له ذهبا أن تهرب من حظيرته، إن اضطرته الظروف لذبحها إن رفضت العودة لفعل دون تردد!

***

يقولون – ومعهم كل الحق – أن الهواء المشبع باليود يطهر جراح الأرواح المعذبة. حسن زيدان يؤمن بذلك هو الآخر، طوال الفترة التي قضاها أسيرا لغيبوبته، ظل حبيسا بغرفته المظلمة لم يبرحها، يتعذب بأصوات استغاثات الأطفال الثلاث التي تداخلت مع صراخ استغاثات طفليه، عذاب مستمر لا نهاية له، عندما استرد وعيه قرر أن يختفي تماما!

هو يعرف جيدا قدر حاجة جمال أبو هاشم إليه، ولكنه استكفى مما حدث في المرة الأخيرة، ولن يسمح لنفسه بتكرار هذه التجربة ببشاعتها وقسوتها مرة ثانية حتى وإن كان الثمن لذلك حياته.

قرر الفرار والتواري بعيدا عن الأنظار في تلك الشقة المطلة مباشرة على البحر والتي استأجرها بالعجمي بعيدا عن الاسكندرية، أغلق هاتفه المحمول وابتاع شريحة اتصالات جديدة برقم جديد لهاتفه وسجله بصورة بطاقة أبيه التي لم تنته صلاحيتها بعد، لم يعط رقمه الجديد هذا سوى ليارا ناصر، كان يراها كقديسة بالغة نقاء الروح بصورة لا تؤهلها للعيش بين البشر ولذا لم يخش وشايتها به.

كان يأمل أن ينساه جمال أبو هاشم تماما كلما طالت فترة اختفائه، لقد مل معاملته وكأنه جهاز لكشف الكذب دائما تحت الطلب.

ليس لدى حسن زيدان أي مانع أن يخدم العدالة راضيا، بل كان فخورا بذلك الدور ولكنه كان يريد أن يخدم العدالة فقط ما دام الأمر ليس فيه ضرر ولا ضرار، بل لو كان الضرر الواقع عليه هو فقد حياته لما تراجع ولأقبل غير مدبر، سيكون ذلك بمثابة وسيلة لانتحار شرعي لا يلقي به في قاع سقر، انتحار شرعي طالما تمناه.

لا شيء يربطه بهذه الحياة حتى تلك اللحظة، حتى يارا ناصر التي ملئت فراغا كبيرا في حياته إلا إنه كان غير مؤهل نفسيا لتحمل مرارة فقدها، حتما سيتفنن القدر في اختيار الوسيلة التي سيسلبه بها إياها مهما طال الزمن أو قصر.

الغيبوبة الأخيرة طالت بعذاباتها وشاء الله أن يريحه من جحيمها المستعر باستفاقته واسترداد وعيه قبل أن يسقط في هاوية الجنون، ولكن ما من ضمان ألا تستمر تلك الغيبوبة في المرة القادمة أبد الدهر، من قال أنها لا تغزل له الآن شباكها لتكن مستعدة لاصطياده واعية درس هروبه في المرة الأخيرة؟!

الآن هو يجلس وحيدا على شاطيء خلا من المصطفين في ذلك الوقت من العام، يؤمن أن مقدرته تلك نقمة لا نعمة، لو تيقن أن خلاصه منها سيكون بإغراق نفسه في ذات الترعة مرة ثانية لفترة كافية أو بين مياه البحر الهائج المالحة ليعكس تأثيرها، لفعل دون تردد!

***

المكان: الاسكندرية.

الزمان: منذ أربعة عشر عاما وستة أشهر.

النونو لا يكتفي بالنظر أسفل قدميه، لا يقنع بتلك الدقائق التي يختلسها وسميرة بعيدا عن عيني هلال السباعي، لن ينتظر عقابا آخر من الأخير قد يقضي عليه في المرة التالية، فكَّر ثم قرَّر، ثم تمكن بغير جهد من إقناع سميرة بأن موعد التحرر من أسر هلال السباعي قد حان!

- احنا لازم نهرب.
- نروح على فين؟!
- أي داهية!
- هلال هيجيبنا.
- مش هيلاقيلنا طريق جرة، هننزلوا مصر.
- طيب نستنوا شوية يمكن ...
- مفيش وقت.
- هناخدوا معانا سعاد.

احتج النونو وهاج وماج ثم أرغى وأزبد، ثم تودد وتوسل، ولكن كل ذلك لم يغير في قرار سميرة شيء، لن تترك سعاد لهلال السباعي ليتحرش بها صباح مساء.

لا تتحمل سميرة ما يفعلونه مع سعاد، الطفلة ذات الثلاث سنوات لم تكن تعي ما يدور حولها غير سويعات المساء حين يزول من دمها تأثير الأدوية التي يشربونها إياها، داومت زوجة هلال السباعي على إعطائها على مدار النهار تلك الأدوية التي تسبب النعاس كي لا تفضح أمرهم خلال ساعات التسول الصباحية، تحملها قاسية القلب شبه فاقدة الوعي وتغطيها بقطعة من القماش الأبيض واضعة أياها في حجرها حتى انتهاء وردية تسولها.

عاطفة الحب التي تجري في دماء سميرة تجاه سعاد كانت كل ما يربطها بعالم البشر، لو لم توجد سعاد في حياتها لتحولت سميرة لحلزون مذعور يتقوقع على نفسه ويختبيء بعيدا عن كل ما يمت للبشر بصلة.

كثيرا ما كانت تشفق على سعاد وترى بعين بصيرتها مستقبل تلك الطفلة المظلم، ستصبح مثلها عما قريب، وسيلة لجمع المال الذي يوضع أولا بأول خلال سويعات النهار في جيب هلال السباعي، ثم ما تلبث أن تتحول لوسيلة تسلية يتسلى بجسدها ما إن يأتيها المحيض، أو ربما لن ينتظر كل تلك الفترة مثلما فعل مع سميرة.

لم يكن لدى النونو خيار آخر أمام رفض سميرة القاطع لترك سعاد في أسر هلال السباعي.

***

بدأ فأر الشك يرتع ويلعب في صدر يارا ناصر متسائلة عن السبب الحقيقي وراء اختفاء حسن زيدان، هي تعرف أن القبضة الأمنية باتت محكمة على كل أنحاء البلاد لتشمل الفضاء الإلكتروني أيضا، لا شيء يوقفهم، لا أحد يحاسبهم، لا أحد يتكبد عناء الحديث عن تجاوزاتهم إلا بعد موافقتهم، الصحافة والإعلام المرئي والمسموع – الخاص منهم والعام – جميعهم ارتدوا برقع الصمت وفي حاجة لقاسم أمين آخر يحررهم، من يخالف التعليمات يدرك جيدا أنه بذلك يُوقِّعُ إقرارا منه برغبته في إنهاء مستقبله المهني، والأمثلة كثيرة، ولكن كل ذلك لم يكن سببا كافيا لإقناع يارا ناصر بما وراء تحرشات الأمن بحسن زيدان!

هو توقف عن كتابة أي شيء على فيس بوك وما كتبه منذ زمن بعيد لم يكن بالقوة الكافية لاستثارة المنظومة الأمنية، بل أن عقل يارا ناصر الأنثوي قد ارتحل بها للتفكير في منقطة أنثوية بحتة نائية وألحَّ السؤال على عقلها الباطن وراح يرتع في مخيلتها الخصبة ..

"لم لا يكون حسن زيدان وغدا جربوعا حقير الأخلاق كسائر الرجال وقد قرر أن يخنها بعيدا عن أنظار الفضوليين والمتطفلين؟!"

"ماذا يمنع أن يكون هروبه من البطش الأمني محض أكذوبة ألفها خياله الذكوري؟!"

منذ سنوات طويلة اعتادت ألا يقترب منها ويتقرب لها إلا كل نذل ووغد تكتمل فيه كل صفات الحقارة .. فماذا يجعل من حسن زيدان استثناءً يؤكد القاعدة!؟ .. لم لا يكون حسن زيدان بالفعل برهانا آخر على صحة القاعدة؟!

بالطبع لم يكن أي رابط شفهي أو رسمي يربطها عاطفيا بحسن زيدان، ولكنها أقنعت نفسها أن الصداقة التي بينهما لا تعطيه الحق في التورط في علاقات شرعية أو غير شرعية مع نساء أخريات دون علمها!

مدفوعة بالشك سافرت على أول قطار متوجه إلى الاسكندرية في الجمعة الرابعة التي مرت على اختفاء حسن زيدان من القاهرة، لم تكن سيارتها الفيات المتهالكة بقادرة على قطع كل تلك المسافة من القاهرة للإسكندرية.

على أعتاب الاسكندرية اتصلت بحسن زيدان لتفاجئه بحضورها لتترقب رد فعله، إن تعلل بأعذار واهية متهربا من مقابلتها فخيانته لها إذا باتت مؤكدة، لن تحتاج لإثباتات آخرى تثبت عليه جرم خيانته لها على الرغم من عدم اعتراف كل منهما بوجود علاقة رسمية كانت أو غير رسمية بينهما تضرها الخيانة!

قلبها كان بريئا فكان مقدر له أن يرتاح ويطمئن من عذاباته حين سمعت بأذنيها عبر الهاتف المحمول سعادته تسبق اندهاشه، لم تكد تمضي ساعة حتى وجدته أمامها وقد ازداد نحافة وأعفى لحيته، لم تمض ثوان حتى

اختفى شحوب وجهه مستعيدا نضارته، وجهها بخمريته الفاتنة وقسماته الرقيقة وابتسامتها الطفولية الواسعة بغمازتيها الساحرتين كانوا بمثابة ترياق لاكتئاب شديد كان قد سمم روحه.

لو أن العيش في الجنة كان بالأرواح فقط لا بالجسد لأمكن القول أنهما كانا في الجنة طوال هذا اليوم منذ ألتقيا في الصباح وحتى آن وقت الوداع في المساء، وداع أدرك معه حسن زيدان أن روحه تفر من جحيمه إلى جنتها، وداع أدرك معه أن من الأفضل الاستجابة لطلبها والعودة ثانية لحياته وعمله ليكون بالقرب منها قدر استطاعته، كان قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ لولا أن جائته مكالمة عبر هاتفه المحمول أعادت روحه إلى قاع الجحيم مرة ثانية!

***

كان حسن زيدان بالفعل قد بدأ في حزم حقائبه استعدادا للعودة للقاهرة في الصباح الباكر لولا رنين هاتفه المحمول الذي قاطعه، ظن في البداية أنها فتاته تعلمه بالعودة أو تطمئن على عودته لشقته البعيدة عن الاسكندرية، ولكن كانت الشاشة تعلن عن رقم غير مسجل لديه، كان قد اعتاد هذه الأرقام منذ اشترى شريحة اتصال جديدة برقمها الجديد.

كثيرا ما أثير استفزازه حين يجد أحدهم وقد قرر أن يتصل بعد فترة طالت بمحروس أو زينهم أو سعدية، أي أسم يخص الأشخاص الذين امتلكوا هذا الرقم في يوم من الأيام قبل إيقافه من شركة الاتصالات لتبيعه لشخص جديد سيء الحظ كحسن زيدان، عندما أجاب على الاتصال وقبل أن يعتذر للمتصل ليصدمه أنه قد خسر بضعة قروش في اتصال برقم خاطيء وأن هذا الرقم لم يعد يخص محروس أو زينهم أو سعدية، فاجئه صوت سرت له قشعريرة في جسده بأكمله، آخر صوت كان يتوقع سماعه!

– مش خايف تبوش من المية المالحة يا (أبو) علي ولا إيه؟!

كان هذا جمال أبو هاشم يتحدث على الطرف الآخر!

أسرع حسن زيدان بإنهاء الاتصال دون تفكير ثم أغلق الهاتف، ظل يقطع الغرفة ذهابا وإيابا محاولا استجماع شتات عقله مفكرا في الخطوة القادمة.

هل يغادر المكان هاربا بسرعة؟!

هل يحفر خندقا في باطن الأرض يتوارى بداخله إلى وقت قيام الساعة؟

هل يلقي بجسده من الطابق الرابع آملا أن تصعد روحه إلى بارئها ولكنه يخشى أن يخيب ظنه وينتهي الأمر بإصابات تفضي لعجز كلي؟!

ظل على هذا الحال ساعة كاملة يكاد التفكير أن يقتله، فتح هاتفه المحمول مرة ثانية ليبعث برسالة إلى يارا ناصر قبل أن يتخلص من شريحة الاتصال فاستقبل هاتفه عدة رسائل ما بين يارا ناصر وجمال أبو هاشم الذان يحاولان الوصول إليه ورسالة نصية أخرى أرسلها جمال أبو هاشم تطمئن حسن زيدان بأن الأول لا يريد به شرا ويذكره بأنه إن كان يريد إلحاق الأذى به لأتى إليه في شقته بالعجمي ليفعل!

تسمر حسن زيدان في مكانه يحملق في الرسالة الأخيرا فاقدا القدرة على التفكير إلى أن أفزعه صوت رنين هاتفه المحمول حاملا اتصالا من جمال أبو هاشم فكاد الهاتف أن يسقط من بين يديه!

- هترجع إمتي القاهرة .. عايزين نتكلم يا حسن.

سأله جمال أبو هاشم بهدوء لم يتوقعه حسن زيدان!، لم يجبه حسن زيدان وظل صامتا ينتظر منه استكمالا للحديث عله يستبين نواياه، فاستطرد الأول بنفس الهدوء، لم يتغير صوته:

- أنت خايف مني يا حسن ولا إيه؟!

- هجيلك بكرة.

قالها حسن زيدان في حسم وقد استثاره اتهام جمال أبو هاشم له بالخوف.

– طيب لما توصل استريح شوية وابقى قابلني في مكتبي بالليل، وعلشان تعرف إن صاحبك جمال أصيل، أنا خلصتلك الفترة اللي فاتت في الشغل دي أجازة مرضي .. أي خدمة، ولاد الحرام دول كانوا عايزين يفصلوك .. تصور !

– شكرا يا جمال بيه، هجيلك بكرة.

قالها حسن زيدان وأنهى الاتصال ثم أغلق هاتفه وأخرج شريحة الاتصال وكسرها بأسنانه وأعاد شريحته القديمة، قام بتشغيل هاتفه المحمول ثانية لينهال عليه سيل من الرسائل من عشرات الزملاء بالعمل حاولوا الاتصال به، كاد صندوق رسائله أن يمتلأ لتبدأ الرسائل في التساقط متبعثرة حوله على الأرض، ألقى نظرة سريعة على المرسلين كان النصيب الأكبر من حظ علاء نبيل وجمال أبو هاشم كما توقع، توقف سيل الرسائل فنعم حسن زيدان بعشر ثوان من السكون قبل أن تصل رسالة جديدة تحمل اسم جمال أبو هاشم.. لم تحتو الرسالة على الكثير من الكلمات ..

"حمدا لله على السلامة"

***

(١٠)

في أول أيام عودته إلى عمله لم يستطع حسن زيدان التركيز في كم الأعمال المتأخرة المطلوبة منه، يسيطر عليه الشعور بالكسل الشديد المعتاد في أول يوم للعمل بعد أجازة طويلة، لم يتطلب الأمر وقتا طويلا ليسامحه علاء نبيل على اختفائه كل تلك الفترة، قضى أغلب اليوم في منطقة التدخين المفتوحة مفكرا في لقائه المرتقب مع جمال أبو هاشم بعد انتهاء ساعات عمله، من ساعة لأخرى تأتيه يارا ناصر تطالبه بالتوقف عن حرق المزيد من السجائر متسائلة عن الشيء الذي يشغل باله فلا يخبرها الحقيقة.

– أنتِ خايفة عليا ولا إيه يا يورو ؟!

يسألها محاولا المزاح وابتسامة ود تكلل وجهه، تضحك هي وقد نجحت في بسط ملامحه وتبديل عبوسه لسرور قائلة في سخرية:

– هو أنت يتخاف عليك بصحتك اللي زي البومب دي؟؟! .. أنا خايفة الحقيقة على خرم الأوزون وأنت الصادق.

– لأ أنا بقول بقى إنك لازم تجربي السجاير، ساعات مش هيهمك خرم الأوزون بدل هيمنع خرم تاني في الدماغ.

– الفزلكة دي ما بعرفش آخد معاها حق ولا باطل يا حسن والله .. ربنا يهديك.

كانت هي النقطة البيضاء الوحيدة في ثوب حياته حالك السواد، الوحيدة القادرة على سطح هذا الكوكب البائس على رسم الابتسامة على وجهه وإدخال السرور إلى روحه المعذبة، يخشى اللحظة التي يصارحها فيها بمشاعره تجاهها خائفا من الخيارين المتاحين، إن رفضته فذلك عذاب أليم لروح لم تعد تتحمل المزيد من النكبات وإن قبلته فلن يتحمل لحظة فقدها الحتمي مثلما اعتاد من القدر سواءً أبتعدت تلك اللحظة أم اقتربت.

مضت ساعات العمل بطيئة بسرعة سلحفاة تمشي مرغمة نحو هلاكها، اعتذر ليارا ناصر عن عدم مقدرته على الخروج سويا في ذلك اليوم متعللا بارتباطه بموعد هام.

عندما حل المساء وفي الموعد المتفق عليه ذهب حسن زيدان إلى قسم الشرطة وطلب مقابلة جمال أبوهاشم الذي كان هاتفه المحمول مغلقا فأخبروه أن ينتظره في غرفة مجاورة حتى ينتهي من اجتماع هام ففعل!

مضت ساعتان على حسن زيدان منتظرا في تلك الغرفة، يحضر من وقت لآخر أحدهم ليسأله إن كان يرغب في احتساء أيا من المشروبات، يسألهم إن كان الاجتماع سيطول ليرحل ويأت في وقت آخر فيطلبون منه الانتظار بناء

على تأكيدات جمال أبو هاشم شخصيا، امتلئت مثانته بأكواب من الشاي والقهوة ولم يجد مكانا يقضي فيه حاجته فدفعه الغضب من طول الانتظار لأن يقضي حاجته في إصيص من الزرع في ركن الغرفة!

– خير يا جمال بيه!؟

قالها حسن زيدان حين دخل غرفة المكتب بسخرية دافعها غضبه من تلك الإهانة المتعمدة من جمال أبو هاشم وقد وصلت رسالة الأخير إليه.

– سامحنا بقى يا صديقي، استنيت أنت كتير، كان عندي اجتماع مهم.

قالها جمال أبو هاشم وابتسامة سخرية ترتسم على وجهه، هو يعرف أن حسن زيدان مع دخوله غرفه مكتبه قد أدرك أن لم يكن ثم اجتماع في هذه الغرفة وأن جمال أبو هاشم ما تركه في غرفة مجاورة إلا بدافع الإذلال والإهانة.

– ولا يهمك يا جمال بيه، الله يعينك، خيرا؟، كنت عايز تقابلني.

نهض جمال أبو هاشم من مقعده خلف المكتب وجلس في المقعد المقابل أمام حسن زيدان وأخرج سيجارة من علبة سجائره وأشعلها دون أن يعطي واحدة كعادته لحسن زيدان، هو كان يتعمد هذه المعاملة الجافة بدافع فرض السيطرة، ولكن حسن زيدان أظهر أنه لم يهتم وأخرج سجائره هو الآخر ليشعل واحدة في ندية غير معلنة.

– كنت مستنيك تيجي تباركلي بعد الترقية والنقل.

نظر حسن زيدان للافتة الخشبية على المكتب فوجد اسما آخر قد حل محل اسم جمال أبو هاشم.

– مبروك يا جمال بيه .. نتمنى حاجة أفضل.

– جهة أمنية هتعرفها بعدين، المهم بقى أنا لقيتك اختفيت فجأة يا حسن فقلقت عليك، بس اتطمنت لما عرفت إنك هربت على اسكندرية.

– هربت!

قالها حسن زيدان في استنكار من استخدام جمال أبو هاشم لهذه الكلمة بلهجة ساخرة ثم استطرد مكملا استنكاره متلعثما بفعل ضيقه:

– هربت من إيه يا جمال بيه؟! .. هو أنا عليا حكم ولا حاجة ؟!

علت ضحكات جمال أبو هاشم فرحا بنجاحه في استفزاز حسن زيدان وعلق قائلا:

– إيه يا عم أنت .. خدت الموضوع جد ليه كده؟! .. اختفيت يا سيدي .. كده الصياغة حلوة؟!

كان حسن زيدان يستشعر الغضب من طريقة جمال أبو هاشم التهكمية فقال في صرامة تنم عن غضبه وظهر ضيقه في تلعثمه الذي تزايد:

– جمال بيه .. يا ريت بلاش أسلوب الاستهزاء ده، أنا بيتهيألي إني حر اختفي ولا أسافر ولا أعمل أي حاجة نفسي فيها.. ولا إيه ؟!

– وشغلنا ؟!

سأله جمال أبو هاشم وقد تبدلت ملامحه في لحظة من السخرية إلى الصرامة:

– ما له شغلنا ؟! .. أنا بساعدك تطوع مش مجبر.

– بتساعد العدالة ..

– لأ يا جمال بيه، أنا بساعدك أنت. العدالة مش بتحتاج مساعدة من حد، العدالة عجلة ودايرة بإرادة ربنا اللي بأيده ومشيئته يحقق العدل، مش هتقف عجلة العدالة دي بسببي ولا بسبب غيري.

– عظيم.

قالها جمال أبو هاشم ونهض مصفقا براحتيه في تأكيد على كلمات حسن زيدان قبل أن يستطرد ضاغطا عليه مستغلا ضعفه الذي اتضح من تلعثمه:

– وربنا خلاك سبب .. ليه بقى بترفض إرادة ربنا يا شيخ حسن؟!

قالها ثم رجع ليجلس على كرسيه خلف مكتبه ليُشعِر حسن زيدان أنه في مكانة أعلى دائما، سحب حسن زيدان شهيقا عميقا وزفره ببطء محاولا استجماع هدوءه والسيطرة على تلعثمه الذي يسلب كلماته قوتها قائلا:

– أولا يا جمال بيه أنا مش شيخ ولا نيلة، ثانيا سواء كنت سبب ولا مش سبب فأنا بساعد تطوع .. مش مجبر .. لو أنت خايف على عجلة العدالة دي

فأكيد كنت هتطلب مني إني ابقى طوع الداخلية كلها بدل ما بتخليني أزق عجلتك أنت بس ومش مهم الباقي.

أزعج جمال أبوهاشم طريقة حسن زيدان الهجومية وعودته لثباته الإنفعالي وكأنه قد توهم كونه في موضع قوة لا في موضع ضعف، جمال أبو هاشم في حياته المهنية – بل منذ التحق بكلية الشرطة – يكره أن يحدثه أحد من المدنيين من موضع قوة، هو يرى في نفسه ممثلا للقوة الأمنية بعنفوانها وقدرتها اللا محدودة على البطش متى شاء وكيف شاء، كانت السنتان اللتان أعقبتا ثورة الخامس والعشرين من يناير بالنسبة إليه بمثابة كابوس كالجحيم إلى أن استيقظ منه بعدما عادت المياه إلى مجاريها وقد عاد الشعب يستجديهم للعودة للقيام بعملهم مهما كلفهم الأمر وقد ارتضى الشعب أن يدفعوا من كرامتهم ضريبة استعادة الأمن، استفزته كلمات حسن زيدان فوزن كلماته أولا ثم قال بلهجة يحاول أن يبدو خلالها ودودا مجبرا فمه على الابتسام لتظهر كابتسامة شيطانية بغيضة:

– تصدق فعلا أنا غلطان ! .. أنا بحاول أحافظ عليك يا حسن على قد ما أقدر، أنا كان ممكن فعلا من أول يوم أوصَّل الموضوع بتاعك للقيادات وساعتها كنت أنت هتتحول لفار تجارب، وجسمك زي ما أنا وأنت عارفين مش بيستحمل كتير، شوف بقى فيه كام مليار سر اتقال في أوض مقفولة هيحبوا يعرفوه من أول الفراعنة لحد النهاردة .. تصدق بإيه؟! .. ما تقول

لا إله إلا الله يا أخي .. أنا بتصدم أكتر لما افكر في عدد الدول اللي هتطالب بتطبيق مبدأ الاحتراف ويرفضوا إنك تخدم مصر بس .. ده الأمم المتحدة هتعتبرك كنز للبشرية كلها ومش هتلاقي فيتو ينجدك .. اللي أنا عملته معاك ده زي ما بيقولوا كده "Win-Win Situation" .. أنا بكسب إني بعرف الحقايق من خلالك وأنت بتكسب ثواب مساعدة العدالة بس من غير ضغوط عليك صحتك مش هتستحملها.

– ولو أنا مش عايز الثواب ده .. ؟!

سأله حسن زيدان مبتسما وقد أدرك أنه في تلك اللحظة صار بالفعل في موضع قوة، فأجابه جمال أبو هاشم بلهجة لم تخل من التهديد وقد انحنى للأمام من خلف مكتبه في مواجهة حسن زيدان:

– يبقى أنت حر طبعا، ومن حقك تنسحب في أي وقت .. تتجوز تاني وتعيش مرتاح، أنا معاك الصراحة في القرار ده .. يارا أحمد عبد العزيز ناصر بنت ناس وتستاهل واحد ابن حلال زيك.

أدرك جمال أبو هاشم أنه قد حقق مراده بكلماته تلك، ابتسم ظافرا وهو يرى الوجوم يسيطر على ملامح حسن زيدان حين نطق بإسم يارا ناصر كاملا، تلك كانت رسالة تهديد مستترة وقد كان جمال أبو هاشم يقصدها كل القصد، وقد وصلت الرسالة إلى حسن زيدان جلية وظهر ذلك في شحوب وجهه.

نهض جمال أبو هاشم من خلف مكتبه ثانية ووقف وراء حسن زيدان الجالس في كرسيه بلا حراك، وضع جمال أبو هاشم يديه على كتفي حسن زيدان ليشعر أكثر بصدره الذي يعلو ويهبط من قوة الشهيق والزفير ليؤكد لنفسه نجاحه في إيصال تهديده لحسن زيدان بصورة مثالية.

– تقدر تروح يا حسن.

قالها جمال أبو هاشم قاطعا الصمت الذي ساد بينهما لثوان طالت ضاربا من جديد بلا هوادة بكلماته التي تؤكد للأخير أنه صاحب القرار في انصرافه من عدمه، نهض حسن زيدان متثاقلا من مقعده لينصرف دون أن يتفوه بكلمة بعدما أدرك أن مستقبله كما توقع لن يتخلى عن سوداويته، كان يُمنِي نفسه أن يخيب ظنه لمرة واحدة ولكن لم يشأ القدر أن يواجه الحياة بمثل هذا التفاؤل!

***

(١١)

مع مرور الأيام لم يستطع حسن زيدان التخلص من قلقه حيال رد فعل جمال أبو هاشم المنتظر، كان يخشى ذلك الهدوء غير المعتاد وغير المتوقع الذي حتما يُنذِر بحدوث عاصفة يخشى أن تعصف بيارا ناصر قبل أن تعصف به.

لم يتلق أي اتصال من جمال أبو هاشم في الأيام التالية وذلك ما كان يزيد من قلقه، كان يتمنى أن يهاتفه جمال أبو هاشم متوعدا أو يجره إلى قسم الشرطة جر المجرمين أو يعتقله ليلقي به في قبو يتبع جهته الأمنية الجديدة فيظل فيه إلى قيام الساعة، ولكن جمال أبو هاشم لم يفعل!

تعصف بعقل حسن زيدان التساؤلات عن كيفية علم جمال أبو هاشم بما بينه وبين يارا ناصر، ما الذي يدفعه للتجسس عليه من الأساس؟! .. ماذا يُبطِن نحو يارا ناصر التي لا ناقة لها ولا جمل؟!

تتجمع في نفسه بعض من الشجاعة لتدفعه لشكوى جمال أبو هاشم استباقيا إلى قياداته وقبل أن تغلبه الحماسة يتراجع ثانية إذ لا شيء بصفة رسمية يربطه بجمال أبو هاشم، حتى تعاونهما غير الرسمي سيعده الآخرون دربا من دروب الخيال، لو أتى أحدهم إلى حسن زيدان وأخبره عن مقدرته على سماع موجات صوتية تتردد في الغرف المغلقة يسمعها بغرفته المظلمة التي ينزلق إليها دخولا وخروجا عبر نفقه المظلم لعده حسن زيدان مخبولا من المخابيل الذين يطوفون الشوارع ويهزون بخرافات تؤهلهم للمكوث تحت العلاج والرعاية في مصحات نفسية!، فكيف سيطلب من الآخرين أن يصدقوه ؟!

سمع طرقات على باب شقته فظن أن هذا جمال أبو هاشم قد أتاه بنفسه في هذا الوقت المتأخر من الليل ولكن حين فتح باب شقته طالعه وجه لشخص لم يكن يتوقع مقدمه على الإطلاق!

- إزيك يا حسن، محدش بيشوفك ليه ؟!

***

وقفت يارا ناصر في شرفة غرفتها تحدق في القمر المكتمل بدرا في تمامه وسط سماء صافية تسر العاشقين، سرحت مع ضوئه الخلاب وبهاء طلته مفكرة في حسن زيدان وما يحمله المستقبل لهما سويا أو فرادى، انعزلت عن ضوضاء السيارات والمارة بالأسفل تماما وراحت تسترجع أيامها الجميلة الماضية والتي بدئت بعد عودة حسن زيدان من حادثته المروعة، تعلم علم اليقين أن حسن زيدان لم يصارحها بأي مشاعر تجاهها، هو يعاملها كصديقة مقربة للغاية ولم يتجاوز هذا الإطار الذي وضعها فيه، كانت تظن في البداية أنه قد يبدأ في تحرشاته بها قولا إن لم يكن فعلا مع مرور الوقت ولكن خاب ظنها ! .. بل لم تكن تفكر إلا في رد فعلها إن فعل ذلك هل سترحب بالأمر أم سترفضه!

بالطبع هي كانت ولا زالت ترفض تماما فكرة الزواج محتفظة بسر العمر داخلها ولكن في ذات الوقت لا تدري هل سينهار حائط رفضها أمام مطلب حسن زيدان أم لا ؟!، رغم عبوسه الدائم هي تعلم أنها الوحيدة القادرة على رسم البشاشة على وجهه وترى في كل مرة مشاعر العرفان بجميل صنعها ترتسم في عينيه.

يضايقها فقط عدم إبداء الطلب في الارتباط بها أو التلميح لذلك على أقل تقدير، ليس من المهم أن تقبل أو ترفض ولم تكن تشغل بالها بالقرار وقد انشغل بالها بالرغبة العارمة في أن يعرض الأمر عليها كي ترى في عينيه أنها

ذات قيمة حقيقية يرغب في تواجدها إلى جواره أبد الدهر وليس مجرد علاء نبيل آخر ولكن بكروموسومات أنثوية!

كادت في إحدى المرات تصارح علاء نبيل بمشاعرها تجاه حسن زيدان آخذة رأيه في الأمر ولكنها تراجعت في اللحظات الأخيرة، علاء نبيل رغم أخلاقه النبيلة إلا أنه رجل كبقية الرجال الآخرين لا يمكن الوثوق به فيما يتعلق باحترام المشاعر الأنثوية، قد يجعل منها مادة للتندر والسخرية بين زملائه في حضورها وغيابها وإن لم يفعل عامدا فمن المؤكد لدى الجميع أن علاء نبيل ثرثار يمشي على قدمين وسيفشي حديثهما بعفوية غير مقصودة.

- يارا ..

فزعت يارا ناصر من صوت أمها الواقفة خلفها إذ فاجئتها لتفقد سيطرتها على الكوب الخزفي بين يديها ليسقط في الشارع، لم تسمعا صوت تهشم زجاج سيارة بالأسفل ولكنهما سمعتا صوت صرخة رجل بالأسفل فهرعوا إلى داخل الغرفة هاربتان من سيل السباب والشتائم البذيئة القادرة على خدش حياء العاهرات والتي انهالت عليهما من أسفل من أشخاص ساخطين لن يتوصلوا للفاعل من بين تلك الشقق في تلك البناية شاهقة الإرتفاع!

***

لم يدخل تلك الزاوية أسفل بنايته منذ آخر لقاء جمعه بالشيخ منير راضي، لم يستطع حسن زيدان أن يستبدل صورة الشيخ التقي الورع الذي يتفصد الإيمان من ثنايا جلده الشريف بدلا من العرق بصورة "العصفورة" الذي ينقل للأمن أي شيء وكل شيء!

لم يرغب في مواجهته بوشايته المشينة، إن إنكر الشيخ لأصبح في عيني حسن زيدان كاذبا، وإن أقر بفعلته لهوى من نظره وأفقده الثقة في كل البشر. كان ذلك قبل معرفة السبب الذي يجبر منير راضي على التعاون مع الأمن!

رحلات طويلة قضاها حسن زيدان في غرفته المظلمة منزلقا عبر نفقه المظلم في مكتب جمال أبو هاشم بقسم الشرطة ليتلصص على ما كان ينقله له منير راضي.

لم تصدمه المعلومات التي كان ينقلها له منير راضي حول بعض المنتمين للتيار الديني في المنطقة أو بعض الخلافات الشخصية والعائلية التي يحكيها كثير من الأهالي لإمام وخطيب يحسبونه على خير طالبين نصيحته، ما صدمه هو تلميحات الضباط وتصريحاتهم لمنير راضي حول ماضيه وكيف أنقذوه في شبابه من قضية كادت تقضي على مستقبله.

ما إن علم بماضي منير راضي حتى اعتبره تغوطا يمشي على قدمين، لا يستحق سوى الإزدراء، لم نقابل في الحياة رجلا يبدي احتراما لتغوطه.

لم تكن جريمته جنائية ويا ليتها كانت!

كانت فضيحة لممارسته الشذوذ الجنسي في المدينة الجامعية أيام دراسته مع ثلاثة من زملائه، ومنذ ذلك الحين ومنير راضي بعين ذليلة ينفذ كل ما يطلبونه منه بلا تردد، بل يتطوع أحيانا بنقل أي معلومة تصل إليه طمعا في رضاهم وعرفانا منه بجميل صنعهم معه وقد أنقذوه من الفضيحة!

لم يتوقع حسن زيدان أن يمتلك منير راضي القدر الكافي من الجرأة ليأتيه حتى شقته، هذا شخص يتمتع بقدر بالغ من التبجح.

– مفيش اتفضل طيب يا شيخ منير ؟!

قالها في إحراج واضح منير راضي فتنبه حسن زيدان لمعاملته له غير الودودة التي كان يستحقها، لم تنبسط قسمات وجهه وحافظ على عبوسها وهو يسمح لضيفه بالدخول دون أي ترحيب منه.

– خير؟

قالها في برود حسن زيدان، حاول قدر جهده أن يخفي مشاعر التقزز من هذا الشخص الجالس أمامه، لم يُظهِر منير راضي ضيقه من تلك المعاملة وقال باسما:

– من غير تشرب إيه حتى؟! .. وماله يا ابني .. مفيش يا حسن، بقالك شهور ما بتجيش الجامع فقلقت عليك.

– لخص يا شيخ.

قالها غاضبا متلعثما حسن زيدان ولم تخدعه ابتسامة وتلطف منير راضي معه، لم يجد اختلافا بين ابتسامته وابتسامة الشيطان التي كثيرا استعارها جمال أبو هاشم لترتسم على وجهه، كلاهما تحملان نفس القدر من الخبث، بدت الجدية على وجه منير راضي بدلا من تودده، يُحب تلك اللحظات التي يكون فيها اللعب على المكشوف كما يقول العامة، في ضربات الجزاء الترجيحية لا مكان للمراوغات، ذلك وقت التركيز فقط على تسديد الأهداف بدقة.

– أنت مزعل جمال بيه أبو هاشم ليه يا حسن ؟!

– أظن ده شيء ما يخصكش!

– أنا بكلمك علشان مصلحتك يا حسـ ...

– أنت أكتر واحد ما ينفعش يتكلم عن مصلحتي.

– التمس لأخيك سبعين عذرا يا جدع .. من اضطر في مخمصة لا أثم عليه..

– كملها صح يا شيخ .. نسيت "غير متجانف لإثم".

– ما تقولش إثم بس .. ذلك ما لم تحط به خبرا ..

– صحيح أنا مش سيدنا موسى .. بس الأكيد أنت مش الخضر.

– ما ينفعش ولا أنا ولا أنت نعصي أولي الأمر ..

– جمال أبو هاشم مش من أولي الأمر .. دوره ينفذ بس قرارات أولي الأمر، وأنت اللي مجبر ما تعصيش أوامره وأوامر غيره علشان عمايلك النجسة.

- عمايلي النجسة!!! .. أنت حر يا حسن.

كانت كلمات عادية تلك التي قالها منير راضي منهيا حديثه لينهض راحلا وقد قام بدور الناصح مثلما أمره جمال أبو هاشم.

"أنت حر يا حسن"

ليس فيها أي شيء يفسر سبب ثورة حسن زيدان العارمة حين سمعها منه، قفز حسن زيدان من موضعه وأمسك بتلابيب منير راضي صائحا في وجهه بغضب وتلعثم واضح مغرقا وجه الأخير برزاز لعابه أنه بالفعل حرٌ ولا أحد مهما بلغ شأنه على هذه الأرض بقادر على أن يجبره على شيء.

تحول حسن زيدان لبركان انفجر فجأة لتتناثر حمم غضبه لتحرق منير راضي الذي وجد نفسه يُلقَى بإهانة كالقمامة خارج الشقة، هرول منير راضي بأقصى سرعة تسمح بها أرطال الدهن المتكدسة بثدييه وكرشه وردفيه قافزا على درجات السلم وحسن زيدان واقف على باب شقته يكيل السباب له ذاكرا شذوذه، لم يضع فرصة منح جمال أبو هاشم نصيبا من الشتائم وقد بدا أنه قد فقد صوابه بالفعل.

لم يكن حسن زيدان يخشى شيئا أو أحدا في تلك اللحظات، ليعتقلونه أو يقتلونه أو يحرقونه حيا .. لم تعد العواقب تشغل باله، يعلم أن منير راضي لن يتوانى عن نقل كل حرف قد قيل إلى جمال أبو هاشم بل سيضع بصمته ويزيد عليه، ولم يعد ذلك يرهب حسن زيدان!

***

في صباح اليوم التالي لم يذهب حسن زيدان إلى عمله، اتصل بعلاء نبيل ويارا ناصر في الصباح وطلب منهما تقديم أجازة باسمه بدلا منه، طلب من علاء نبيل أن يتقابلا بعد العمل ولكن الأخير اعتذر، لن تقبل زوجته بتأخره هذا اليوم وقد تأخر عليها بالأمس في خروجه الإسبوعي برفقة زملائه بالقسم، يارا ناصر رحبت كعادتها بالأمر، لم تكن ترغب في إضاعة أي فرصة لمقابلة حسن زيدان وقضاء أكبر قدر من الوقت معه خارج الشركة بكئابتها.

حاول حسن زيدان أن يتخلص من ضيق نفسه قبل مقابلة يارا ناصر، حلق لحيته واغتسل وانتقي من خزانة ثيابه ملابس قد أبدت يارا ناصر إعجابها بها في إحدى المرات، تعطر وانطلق لمقابلتها في المطعم الذي اعتادا اللقاء به.

بدأ الشك يساور حسن زيدان وقد تأخرت يارا ناصر، اعتاد منها مثل ذلك التأخير في المقابلات التي تتم دون اتفاق مسبق، تأتيه في كل مرة بوجه متخضب بالدماء، لم يكن ذلك بفعل الخجل كما كان يظن قديما قبل زواجه الأول، كان كل ما في الأمر أنها قررت أن تمر على "الكوافير" ليزيلوا سريعا أي آثار لهرمون التستيستيرون من منطقة الشارب والخدين مثلما أفهمته يوما سلمى وهدان زوجته السابقة، هذه المرة لم تكن كسابقتها إذ أمسى هاتفها

المحمول مغلقا، يستبعد نفاد شحن بطاريته إذ يعرف أن بسيارتها شاحنا للهاتف.

أدرك مدى خوفه وقلقه عليها حينها، إن لم يكن خوفه هذا حبا فماذا يكون إذا ؟! .. ضايقه الأمر إذ لم يكن يريد لمشاعره أن تنتقل من حرية الإعجاب لأسر الحب، لا يريد لنفسه التعلق بأحد في هذه الحياة حتى وإن كانت يارا ناصر.

أحرق الكثير من السجائر يكفي قطرانها لرصف المسافة ما بين فمه ورئتيه، شرب الكثير من أقداح القهوة تكفي لإحداث ثقب باتساع ثقب الأوزون في جدار معدته، انتزعه من دوامة التفكير صوت رنين هاتفه المحمول أمامه معلنا عن وصول رسالة لهاتفه ..

"الرقم متاح الآن يمكنك الاتصال به"

شركة الاتصالات قررت أن تنبهه لهذا الأمر، اتصل بها في ذات اللحظة مدفوعا بقلقه، سبها في سره ولم يجد حرجا في ذلك إذ لم تجبه في المرة الأولى، لم يكن هذا بالوقت المناسب لتتلاعب بأعصابه، اتصل ثانية وقبل أن ينقطع الرنين أتاه صوتها من الطرف الآخر، صوتها بدا مختنقا ببكائها غارزا وتدا حديديا صدءً آخر في منتصف قلبه!

***

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتنبه فيها حسن زيدان أن يارا ناصر تتكحل وقد أذاب البكاء الكحل من عينيها فرسم خطوطا طولية سوداء أسفل عينيها، كانت تجلس منكمشة في المقعد المقابل لمكتب جمال أبو هاشم الذي جلس مسترخيا في مقعده الوثير وراء المكتب يدخن سجائره في عدم مبالاة.

– أنا عند جمال بيه أبو هاشم يا حسن.

قالتها بالكاد يارا ناصر منتحبة لحسن زيدان عبر الهاتف المحمول ليهرع إليها في قسم الشرطة حيث أخبرته أنها هناك وليس في مكتب جمال أبو هاشم في عمله الجديد، أسرع إليها دون أن يدفع حساب المطعم، كانت كلماتها بمثابة قنبلة نووية انفجرت في صدره ويحاول هو قدر جهده احتوائها كي لا ينسف هذا العالم بمن عليه، يتعاون معه شيطانه بإخلاص لإيجاد طريقة قاسية للانتقام من جمال أبو هاشم عارضا عليه كل الخيارات المتاحة دون أن يدخر منها شيئا لموتور آخر.

عندما وصل لمكتب جمال أبو هاشم لاهثا يكاد ينفجر قلبه من شدة نبضاته لم ينتظر إذنا للدخول وإنما دفع الباب مقتحما المكتب، لم يبد على جمال أبو هاشم الاندهاش أو الغضب، بل اكتفى فقط بالإشارة بالانصراف إلى العسكري الذي كان يحاول السيطرة على ثورة غضب حسن زيدان العارمة متعلقا بذراعه جاذبا إياه بعنف بالغ نحو الخارج، أما يارا ناصر فقد قفزت

من مكانها وكأن حسن زيدان هو طوق نجاة أتاها في قلب محيط متلاطم الأمواج لينقذها من الغرق حتى وإن بقيت فريسة وسط أسماك القرش وعلى رأسهم جمال أبو هاشم.

– أنا آسفة والله يا حسن، والله أسفة، أبوس إيدك نفذ اللي هو عايزه.

قالتها يارا ناصر مستجدية في اللحظات التي أمكنها فيها التقاط أنفاسها وسط نشيجها، مسح حسن زيدان بكفه على كتفها مطمئنا دون أن يتخلى عن نظرة الجنون التي تطل من عينيه ناظرا لجمال أبو هاشم الذي جلس مبتسما ابتسامة ظفر وقد نال ما أراد ووضع يده بقوة على نقطة ضعف حسن زيدان.

– تقدري تتفضلي أنت يا مدام يارا .. قصدي يا آنسة يارا.

قالها جمال أبو هاشم ساخرا وقد نال مراده منها ولم تعد ذات جدوى، تبادلت نظرات أسف مع حسن زيدان فأشار لها في ود أن تنصرف هي.

– أنت اتجننت؟!

صاح بها حسن زيدان غاضبا ما إن اطمئن لخروج يارا ناصر من غرفة المكتب فضرب جمال أبو هاشم سطح مكتبه بكلتا يديه ناهضا والغضب يتقافز من عينيه زاجرا حسن زيدان بغضب هادر:

– أنت نسيت نفسك ولا إيه يا حيوان أنت .. أنا جمال أبو هاشم .. أنا عليا الأمر وأنت مجرد حشرة .. يا تنفذ الأمر .. يا ادهسك تحت جزمتي.

صوته الغاضب وطريقته الغاضبة أخمدت تماما ثورة الغضب في نفس حسن زيدان وجمدت الدماء في عروقه وبدلت غضبه بخوف، إدراكه لضعف موقفه بدا جليا على وجهه، ارتخى جسد حسن زيدان بعد انتصاب، تذكر أنه بالفعل مجرد حشرة تُدهَس بسهولة تحت حذاء البطش الأمني، قد يتحمل هو عواقب قراراته ولكن جمال أبو هاشم أخبره – فعلا لا قولا – أنه يفتقد إلى الشرف والمروءة ولا يشغل باله عدم التحلي بشيم الرجال بإدخاله يارا ناصر طرفا بالمعادلة وهي لا ناقة لها ولا جمل بشئونهما!

– يا جمال بيـ ..

نطقها بضعف متلعثما حسن زيدان، فاستمر جمال أبو هاشم بنفس لهجته الغاضبة وصوته المجلجل:

– أنت فاكر يا حيوان دخول الحمام زي خروجه!

– يارا ..

– محدش داسلها على طرف، رغم إني ممكن ألبسها مليون قضية علشان نشاطها ولا التبرعات اللي بتلمها وأنت عارف كده كويس .. أنت هنا بقى تسمع وتنفذ .. وإلا ..

هز جمال أبو هاشم إصبعه السبابة في وجه حسن زيدان محذرا قبل أن تهدأ ثورته. ابتلع حسن زيدان لعابه بصعوبة بالغة، استسلم لجمال أبو هاشم ليوصل به خيوطه ليتحكم به ثانية كعروسة ماريونيت مطيعة لمحركها،

هدئت موجات غضب جمال أبو هاشم، ترك حسن زيدان واقفا دون أن يدعوه لجلوس في إذلال واضح ومتعمد قائلا:

– أنا صبرت عليك بما فيه الكفاية يا حسن، بس لازم تفهم كويس .. بمزاجك أو غصب عن اللي خلفوك .. إنك لازم تنفذ أوامري، حبيبة قلبك المرة الجاية مش هجيبها هنا .. هجيبها في مكتبي هناك .. وأظن أنت عارف الباقي.

***

(١٢)

أغلقت يارا ناصر هاتفها المحمول وانعزلت عن العالم مع خروجها من قسم الشرطة، كانت المرة الأولى التي تتعرض لمثل ذلك الموقف طوال حياتها!

بعد أن تحركت من عملها وقبل أن تصل لسيارتها في الشارع الخلفي وجدت ثلاثة يستوقفونها، أحدهم يرتدي زيا شرطيا ويعلق نجمتين ذهبيتين براقتين على كل كتف من أكتافه، جاهلة هي بالمناصب الأمنية لدرجة لم تمكنها من معرفة رتبة هذا الضابط الذي يحدثها!

أخبرها الضابط أنهم يريدونها في قسم الشرطة لوقت لن يطول وأبرز بطاقة هويته لتتأكد.

– حضرتك اتفضلي معانا ومش عايزين شوشرة.

من هول المفاجأة لم تستطع الرفض أو المقاومة، تعطل عقلها تماما فلم تفكر حتى في الاتصال بأهلها أو بأحد من الشركة بل لم تستفسر عن سبب القبض عليها!

في غرفة مجاورة لغرفة مكتب جمال أبو هاشم القديمة سمعت منه تاريخها كله يُحكَي على مسامعها، كل ما مرت به منذ أيام الجامعة التي نسيتها حتى يومنا الحالي، عرض على مسامعها كل التفاصيل والأسرار التي لم يكن يعلم بها أحد، بل حكى لها أمورا كانت قد نسيتها وأمور أخرى لم تعلم هي بها ولكنها فسرت لها الكثير مما حدث لها!

انكمشت في مقعدها تبكي وتنتحب وقد شعرت أنها قد تم تعريتها تماما أمامه، لا تعلم كيف عرف الضابط كل ذلك عنها!

لم تخل كلمات الضابط من الكثير من الكلمات المبتذلة التي ألقاها على مسامعها عمدا توصيفا لأمر ما أو توصيفا لها في أوقات أخرى، كان حياؤها بكرا من السهل أن يُخدش، انحنائاته هامسا في أذنيها أشعرتها أنها تغتصب وليس لها حق المقاومة أو الرفض!

ساعة كاملة مرت وهي لا تدري لم يعذبها بكل تلك التفاصيل التي كانت تحاول نسيانها طوال السنين الماضية، لم لا يُلقي باتهام واضح في وجهها وحسب!؟ .. اتهام واضح جلي لا يصلح معه الإنكار لينتهي هذا الكابوس بالإعدام أو المكوث في غياهب السجون لبضع سنين!

- اتصلي بقى بحبيب القلب خليه ييجي علشان عايزه يا ست يورو.

نظرت مذعورة لجمال أبو هاشم وقد تجمدت الدموع في مقلتيها، هي المرة الأولى التي ترفع عينيها إلى وجهه منذ بدئت البكاء والنحيب، كان الذعر يتملكها خوفا وقد أدركت أنه يقصد حسن زيدان وبخاصة حين ناداها بـ"يورو"!، كانت تخشى أن يعيد على مسامعه ما قاله لها.

- ما تقلقيش كده، اللي قولناه ده سر بينا، أنا عايزه هو .. فيه شغل بينا المفروض يكمل بس هو قلبه قاسي عليا حبتين يا يورو هانم .. ينفع كده؟!.

اجهشت بالبكاء ثانية وتناولت هاتفها المحمول من يد جمال أبو هاشم لتتصل بحسن زيدان إذ لم تجد أمامها خيارا آخر، ولكن جمال أبو هاشم سرعان ما استوقفها وأخذ هاتفها المحمول ثانية قائلا في تخابث:

- ولا أقولك .. هو هيتصل.

صدق توقع جمال أبو هاشم إذ اتصل بها حسن زيدان بالفعل والأول يتسلى بحرق أعصاب الأخير، حين عاود الاتصال مرة ثانية ناول الهاتف المحمول ليارا ناصر لترد على اتصاله وقلبها يبكي بحرقة غير راغبة في حضور حسن زيدان ليُسمِعَه الضابط أسرارها، كما كانت تخشى توريط حسن زيدان في أي أمر يكرهه، لم يكن عقلها بكفائته المعتادة لتسأل نفسها حينها ماذا بين حسن زيدان وجمال أبو هاشم!

***

المكان: الإسكندرية.

الزمان: يوم الهروب من قبضة هلال السباعي.

الخطة اختمرت في عقل النونو وناقشها وتفاصيلها كثيرا مع سميرة ولم يبق غير موعد التنفيذ، ويبدو أن الموعد قد حان.

حين خرجت جماهير الاتحاد السكندري من الاستاد وجدوا غير بعيد النونو بجسده الضئيل جالسا على الرصيف باكيا كرتونة من البيض المهشم بين قدميه، حيلة معروفة يلجأ إليها المتسولون، ولكن كانت في ذلك الوقت لا تزال تؤتي ثمارها مع الفتيات.

توقفت فتاتان كانتا بصحبة مجموعة من الشباب لتستفسرا عن سبب بكاء النونو محاولتان مواساته.

– أنا مش عايز عوض، بس الراجل أبو جلابية ده مستقصدني وكسرلي البيض كله، حرام عليه ورحمة أبويا ده أنا بجري على أيتام.

قال كلماته في قهر واضح مع دموع زائفة يذرفها، ساعدت تلك الخلطة مع جسده الضئيل في نيل تعاطف الفتاتين اللتين حرضا مجموعة الشباب برفقتهم على القصاص لذلك الفتى من هلال السباعي الواقف وشاربه على الجهة الأخرى من الرصيف.

هرمونات الذكورة وحماس المراهقين والرغبة في إرضاء فتاتيهم دفعوهم للتوجه لهلال السباعي من أجل بعض التسلية التي تعوض هزيمة فريقهم، فرصة جيدة لتفريغ تلك الشحنات السالبة التي تضيق بها صدورهم بعد الهزيمة في المياراة.

هلال السباعي لم يستوعب المكيدة في الوقت المناسب وأغضبه تلك التجاوزات من هؤلاء المراهقين الذين عرضوه للشد والجذب حتى اشتعل العراك.

- المعلم بيتعارك يا أمااا..

سميرة كيفما اتفق هرعت نحو أمها وزوجة هلال السباعي لتنبههما لاشتباكه مع مجموعة من الشباب في عراك.

- سيبي سعاد معايا والحقي أنتي المعلم قبل ما يتطحن في العركة.

هرولت السيدتان محاولتان إنقاذ سبعهما وفض الاشتباك، وكانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي اختفت فيها سميرة وسعاد والنونو من المنطقة بأكملها مغادرين الاسكندرية إلى الأبد بلا أي باب خلفي يتركونه مواربا للرجعى.

أي جرم فعلته في حياتك يا هلال يا ابن السباعي كان السبب ليعاقبك القدر بسلبك نصف قوتك العاملة في ضربة واحدة من هراوته!

***

القبضة الأمنية في بلادنا محكمة للغاية، للجهات الأمنية مائة مليون عين وعين على الأقل في جميع أرجاء البلاد تنقل لهم كل شيء يحدث في أرجاء المعمورة وأحيانا خارجها، يفعلون ذلك مجبرين بعض الوقت وطواعية أغلب الوقت وأحيانا دون قصد، لا أمر يظل سرا لأقصى من بضعة ثوان، لم يعتد شعبنا ثقافة حفظ الأسرار.

أي معلومة في السر والعلن بلا استثناء تصل إلى الجهات الأمنية، وإن لم تصل إليهم أمكنهم متى شاءوا الحصول عليها، هم يحددون حين تصل إليهم المعلومة؛ هل يهتمون بها أم يغضون الطرف عنها بصفة مؤقتة أو دائمة.

بالطبع إن كُنتَ في خصومة معهم فلن ينتظروا المعلومة وسيسعون إليها بأنفسهم وسيصلون إليها بكل يسر، لذا إن كان لدى المرء سر يريد الحفاظ عليه فعليه الالتزام دائما بقاعدة "الحرص لا التخوين" وألا يتشارك هذا السر مع أحد حتى نفسه، فلربما أفشت نفسه السر إن أصابه الفصام يوما.

زوجتك، أبناؤك، أبواك، إخوانك وأخواتك وأعز الأصدقاء وأقرب الزملاء .. جميعهم قد لا يتعمدون الوشاية بك، ولكنهم حتما سيثرثرون، وهناك من يجلس منتظرا سماع ثرثراتهم أو سيوقع أقدامهم في فخ الثرثرة حين يشاء، الأصم الأبكم الأعمى هو الوحيد الذي يمكنك أئتمانه على أسرارك مع ضرورة توخي الحذر فربما يتصنت عليكما أحدهم!

أدق تفاصيل حياتك فيما قبل الجامعة يمكن بسهولة الحصول عليها من عائلتك أو من زملائك ومدرسيك أو عائلاتهم الذين يثرثرون بتفاصيلها في جلسات النميمة المحببة إلى قلوبهم رجالا ونساء.

كل نفس تتنفسه داخل الجامعة يصل إلى حرس الكلية، أحمق من يظن أن البصاصين يضعون الجماعات الإسلامية وحدهم تحت أعينهم، كل طالب داخل الجامعة تحت المجهر، المسيحيون على كثرتهم، اليساريون على قلتهم، الملحدون على ندرتهم، المتطرفون عاطفيا، الفاشلون دراسيا والمتفوقون، الجميع على اختلاف فئاتهم وتوجهاتهم تحت عدسة المجهر، عند الرغبة في التركيز على أي شخص يتم ضبط المجهر على هذا الشخص، ولمزيد من الوضوح للصورة يتم الاستعانة مجموعة ضخمة من البصاصين أو ما اصطلح على تسميتهم بالـ"عصافير"، بل من العصافير من يتجسس على بقية زملائه من العصافير!

ستنتهي مرحلة الجامعة لتصطدم بعصافير آخرين في عملك بعضهم يتواصل مع الجهات الأمنية مباشرة وآخرون يتواصلون مع الضابط المتقاعد الذي يتولى منصبا شرفيا في العمل فيتواصل هو مع الجهات الأمنية وآخرون ينقلون كل نفس تتنفسه إلى مديرك الذي لا يبخل بما لديه من معلومات ليلقيها في نفس المسار الذي ينتهي بالجهات الأمنية.

لم يكن من الصعب على جمال أبو هاشم تتبع هاتف حسن زيدان المحمول ليلاحظ هذا الرقم الذي يستأثر بالنصيب الأكبر من اتصالاته، فكان من

السهل معرفة يارا ناصر صاحبة الرقم ومكان عملها وتاريخها بالكامل منذ الجامعة وصولا للثلاث شركات التي عملت بهن بعد تخرجها انتهاء برقم هاتف حسن زيدان الجديد الذي حل محل رقمه القديم في قائمة اتصالاتها ليتتبع هاتف حسن زيدان الجديد ويصل لمكان اختبائه في العجمي ويتأكد – من خلال عين الجهات الأمنية في الشركة – من العلاقة العاطفية غير الرسمية بين حسن زيدان ويارا ناصر، يظن حسن زيدان الأحمق أنه لا يمكن تهديده أو لي ذراعه أو كسرها – إن تطلب الأمر ذلك – لابتعاد من تبقى من أسرته في دولة الكويت مُبقيا ما بينه وبين يارا ناصر سرا، حسن زيدان أحمق آخر يظن أن بمصر شيئا يُسمَّى بالأسرار!

آمن جمال أبو هاشم منذ الوهلة الأولى أن حسن زيدان يتصنع القوة، رأى في عينيه الضعف جليا، هو فقط رجل لا يحب أن يرى الشفقة بادية في أعين الآخرين ولكنه هش للغاية يحاول أن يستمد قوته للبقاء حيا من خلال يارا ناصر، هي ببساطة جهاز إنعاشه القلبي، الوحيدة التي أكثر من ذكر إسمها خلال غيبوبته، الحبل المتدلى من لا وعيه لوعيه أثناء غيبوبته ليتشبث به معيدا إياه للحياة، نقطة ضعفه التي لم ير جمال أبو هاشم عيبا في استغلالها، كعب أخيل القادر على إيلام روح حسن زيدان وجعله دائما تحت سيطرة جمال أبو هاشم!

كان جمال أبو هاشم يدرك أن حسن زيدان من الرجال الحمقى – من وجهة نظره – المستعدين للتخلي عن حياتهم والتضحية بكل غال ونفيس من أجل الأنثى التي يحبونها، وكان محقا في ذلك!

***

في اليوم التالي طوال ساعات العمل لم يتبادل حسن زيدان ويارا ناصر كلمة واحدة بل كانت تتهرب من نظراته إن تلاقت عيناهما، كانت تشعر أنها خُدِعَت بطريقة أو بأخرى، حسن زيدان - في رأيها - يكذب عليها بشأن ملاحقات الأمن الوطني له، هو سبب رئيسي في التجربة المريرة التي تعرضت لها في اليوم الماضي بقسم الشرطة، بضع ساعات مرت وكأنها دهرٌ بأكمله استعادت خلالها ذكريات قضت سنينا طالت تحاول نسيانها عبثا، ما إن بدأ الجرح يندمل حتى جاء جمال أبوهاشم اللعين ليشق بمبضع صدء ذلك الجرح من جديد ويعمقه، أبت أن تستريح في بيتها في الصباح التالي وقررت أن تذهب إلى العمل، إن بقيت في البيت لماتت كمدا!

حسن زيدان على الجانب الآخر يجهل تفاصيل ما حدث بين يارا ناصر وجمال أبو هاشم، عندما انزلق عبر نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة لم يسمع شيئا مما دار بينهما قبل مقدمه، تعمد الأول بلا شك الحديث معها في غرفة أخرى كي لا يسمع حسن زيدان أيا مما قاله.

يقتله الفضول ليعرف ماذا أخبرها جمال أبو هاشم عنه، تعصف بذهنه الظنون وهو يراها في العمل تتحاشى نظراته عمدا. لا تعطي أي رد فعل لرسائله التي يرسلها عبر هاتفه المحمول، يخرج لمنطقة التدخين المفتوحة ليحرق المزيد من سجائره فلا تلحق هي به!، كان يأمل في كل مرة أن تأتي لتعاتبه أو لتتشاجر معه وتفرغ شحنات غضبها ولكنها لم تفعل!

إن صفعته على وجه لأراحته واستراحت!

يخشى أن يبادئها الحديث في المكتب فتنفجر في وجهه أمام جميع الزملاء!

– شايل طاجن ستك ليه يا ابني؟!

يأتيه علاء نبيل في كل مرة في منطقة التدخين ليسأله نفس السؤال في قلق فيجيبه حسن زيدان في ضيق:

– مفيش ..

– لأ بجد مالك يا حسن؟!

– ما قولنا مفيش يا نبيل!

يرده خائبا حسن زيدان في كل مرة بلهجة غاضبة فيقرر علاء نبيل تأجيل عتابه على تلك اللهجة لوقت لاحق!

– ما تيجي نتغدى بعد الشغل؟

سأله حسن زيدان فظهر الحرج على وجه علاء نبيل وهو يجيبه قائلا:

– والله يا حسن رغم أن مراتي بايته عند مامتها اليومين دول بس أنا الميزانية ما تسمحـ ..

– هعزمك يا نبيل .. وعلى سي فوود.

تهللت أسارير علاء نبيل من هذه المفاجأة العظيمة ليخرج هاتفه المحمول متصلا بأمه في ذات اللحظة.

– أيوة يا حاجة، عملتي الفراخ؟! .. طيب قشطة عينيها لبكرة أنا سهران في الشغل وهاجي متأخر وهيغدونا في الشغل هنا غدوة حلوة.

قبل الانصراف من العمل أجابت يارا ناصر على رسائله برسالة واحدة.

"نتقابل في المطعم بعد الشغل"

تبسم حسن زيدان وقد ارتاح قلبه قليلا، نظر لها فوجد عينيها معلقة بالأوراق أمامها متصنعة التركيز وكأنها لم ترسل شيئا!

– نبيل أنا ظهر لي مشوار فجأة كده بعد الشغل، خليها يوم تاني.

قالها لعلاء نبيل هامسا في أذنه ثم ربط على كتفه محاولا تخفيف وطأة الصدمة، انصرف سريعا قبل أن يستوعب علاء نبيل هول صدمته، فتح الأخير فمه كالأبله غير مصدق لما سمعه للتو، وعندما التفت لحسن زيدان ليكيل له السباب كان الأخير قد رحل وتركه دون أن يطل شيئا من بلح الشام عند أمه أو عنب اليمن مع زميله ليقرر الاكتفاء بطبق من الكشري في أي محل يقابله في طريقه ليبيت ليلته وسط عناء من الانتفاخات تؤرق نومه وتخنق الذباب التعيس المتواجد بغرفته.

***

كانت تجلس في انتظاره في المطعم مرتدية نظارتها الشمسية التي تخفي نصف وجهها وعينيها الحمراوتين من أثر البكاء، حزينة هي حزنا استطاع أن يخفي غمازتيها!

جلس في المقعد المقابل ليتشاركا الصمت، أنفها شديد الأحمرار من كثرة التمخط، الإحساس بالذنب يسيطر على حسن زيدان ولا يفارقه، هو مسئول مسئولية تامة عما حدث لها سواء كانت مسئولية مباشرة أو غير مباشرة، لن يسامح نفسه أمد الدهر إن تسبب في بكاء وحزن هذه الطفلة البريئة التي تجاوزت الثلاثين من عمرها فقط في السجلات الرسمية، هو المتسبب في أن يخبت وهج البهجة في عينيها، أن تُطفَأ ابتسامتها الطفولية العريضة، أن تختفي غمازتاها الجذابتان، أن يحولها جثة هامدة كُفِنَت وتنتظر تصريح الدفن!

- أنت إيه اللي بينك وبين الظابط ده يا حسن؟!

أتاه صوتها المتحشرج سائلا ملقية بسؤالها في بركة الصمت الراكدة الفاصلة بينهما، عقد حاجبيه في أسف لما حدث لها وأخرج سيجارة وأشعلها في بطء يسمح بترتيب كلماته التالية:

- عايزني اشتغل معاه يا يارا.

- تشتغل معاه إزاي يعني ؟!

- عايزني اشتغل معاه عصفورة، عايزني اختلط أكتر ببتوع الجماعات

الدينية اللي بيتجمعوا في الجامع اللي تحت العمارة لحد ما يثقوا فيا فأبدأ أنقله أخبارهم، وأنا ولا ديني ولا أخلاقي ولا تربيتي تسمح بكده ولو هيوصل الموضوع لحبل المشنقة فعلى جثتي إني أعمل كده، وقبل ما تقوليلي ما يشوف غيري، أنا اتحايلت عليه مليون مرة وهو مصر إن ما حدش هيعمل كده غيري علشان ظروفي ووشي الكئيب اللي بيخليني أصعب على الكافر، هددني إنه هيعذبني ويغتصبني ويصورني وبرضوا ما قبلتش، هربت منه وبرضوا حاططني في دماغه.. أنا تعبان يا يارا .. أنا عارف إني حطيتك في موقف زبالة إمبارح بس أقسملك بالله ما كنت أعرف إنه هيوصلك ولا إنه هيضايقك .. أنا والله مش عارف الدنيا بتعمل معايا كده ليه ؟!

تحدث هو دون توقف رغم تلعثمه فلم تقاطعه هي، وصل ردها إليه في صورة خيطان من الدموع انسابا أسفل النظارة الشمسية الضخمة شفقة عليه، وكان ذلك خير دليل له على نجاحه في كذبته وخداعها، بل إنه أراد في تلك اللحظة أن يقف فوق المنضدة التي تفصل بينهما لينحني مستقبلا تصفيق جمهور وهمي تقديرا له على إتقانه التمثيل!

أوعز عقله إلى قلبه إنها محض كذبة بيضاء، لن يخبر يارا ناصر بحقيقة مقدرته، لن يخيفها منه لتشعر هي أنها مراقبة طوال الوقت منه، لن تقبل هي أن تظل عارية من ثياب الستر.

- أنت ناوي تعمل إيه معاه يا حسن؟!

- هفضل ألف وأدور عليه لحد ما يفقد فيا الأمل!

- حسن أنا من امبارح ما نمتش .. الظابط الوسخ ده حاول يبتزني.

- مش عايز أعرف حاجة يا يارا ..

- لأ، هتعرف .. علشان ما أحسش إني ضعيفة أو ملوي دراعي قدامك..

- قولتلك والله مش عايز أعـ..

- أنا مش بنت يا حسن ..

***

(١٣)

منذ الليلة التي مضت، لم تساور حسن زيدان أي شكوك بشأن يارا ناصر، سمع صدى صوت جمال أبو هاشم اللعين يتردد في الغرفة المظلمة في الفترة ما بين اتصالها به ومقدمه وهو يهددها بإجراء كشف عذرية، ولكنه لم يوضح ملابسات الأمر، ولم يكن حسن زيدان ينتظر توضيحا من يارا ناصر، ظنه تهديدا أجوفا الغرض منه خدش حيائها وتفتيت كبريائها المهشم لإذلالها، كان يثق أن هذه المحتفظة ببراءة ونقاء طفولتها حتى تجاوزت الثلاثين لا يمكن أن تكون سيئة الأخلاق، لذا وثق بثقته بها ولم يرغب في شرح أو توضيح، بل هي لم تكن مجبرة على قول شيء وإن كانت تريد الاحتفاظ بسرها لفعلت، لا شيء يجبرها على إفشائه.

– أرجوك يا حسن أنا مخنوقة ومحتاجاك تسمعني.

شجعها صمته حين باحت له بسرها، لم يطرأ على قسمات وجهه أي تغيير، لم يُصدم، لم يمتعض، لم يأنف، لم يزدريها، لم يغضب، لم تر لمعة في عينيه كلمعة عين الذئب وقت اكتشافه صيدا سهلا!

بدئت الحديث فشعرت بكلماتها تثلج صدرها، كانت تتحدث دون أن تتوقف عن البكاء، بكاء راحة لا حزن، حدثته عن سذاجتها أيام الجامعة، ارتبطت عاطفيا بزميل اجتمعت فيه الوسامة مع الخلق الحميد مع خفة الظل، تمت خطبتهما بعد التخرج مباشرة، إلا أن القدر حمل لها أول صدمة مزلزلة متمثلة في وفاة أبيها المفاجئة إثر حادث مروري، اهتزت الأرض تحت قدميها، صارت بين ليلة وضحاها مجردة من الدرع الذي سيصد عنها سهام الدهر إن انهالت عليها، مات أبوها فأصبحت حلزون فقد قوقعته وأمست تزحف تتحسس دروب الحياة باحثة عن قوقعة أخرى تحميها لتجد خطيبها يحث السعي لاحتوائها في كنفه.

ليال مرت سريعا سقاها خلالها من كأس معسول كلماته فغيبها عن وعيها، روح واهنة هشة جريحة سقطت أسيرة لمحاولات خطيبها احتلال منزلة ابيها في حياتها،

الأمور كانت بينهما على أفضل ما يرام، يعيشان سويا قصة حب ملتهبة حَري بها أن تُسجَّل في التاريخ لتتناقلها الأجيال التالية، أو هكذا حسبتها يارا ناصر!

طيبتها التي هي أقرب من السذاجة سمحت له بتجاوز الخطوط الحمراء التي يقرها العرف والشرع، أعماها معسول الكلام فزلت قدمها لتسقط في فخ الخطيئة وتسلمه جسدها دون زواج!

كانت أمه – في السابق – كثيرا ما تكيد لها، ولكنه كان يقف لأمه بالمرصاد، ليختلف الأمر تماما بعدما أسلمته نفسها عن ثقة لم توضع في محلها، ظن أنها

في تلك اللحظة في موضع ضعف ولن تجرؤ على الاعتراض على أي شيء، ولكن بقدر ما كان حزنها من هذا التغيير الذي لحق به كانت ثورتها وتمردها على أفعاله، طلبت الانفصال وفسخ الخطبة وأصرت علي قرارها إيما إصرار، هذا شخص حقير ونذل لا يمكنها الوثوق به مرة ثانية، لا يصلح لأن تكمل معه حياتها، حمقاء هي الأنثى التي تجبر نفسها على الزواج من حقير ونذل!، ويارا ناصر وإن كانت تحتفظ ببراءة الطفولة وسذاجة المراهقة وما بعدها إلا أن الحماقة لم تكن بين صفاتها، لم تخبر أحدا من أسرتها بما فعله، مجتمعها الشرقي سيضع رقبتها تحت المقصلة، وهي كانت تعلم ذلك تماما، سرق النذل أعز ما تملكه فتاة في مجتمع شرقي وما استطاعت أن تطالب بحقها فالقانون لا يحمي المغفلين.

الغريب في الأمر أنه أراد أن يرسخ في ذهنها أنه بالفعل حقير نذل لا يتمتع إلا بمروءة الضباع، تحدث بما جرى بينهما وأفشى سرها ممعنا في فضيحتها سخطا على تمردها عليه!، نفت الأمر أمام الجميع حفظا لذكر والدها كي لا تكون سمعته علكة تلوكها الألسن، ولكنها لم تستطع أن تخفي الأمر عن أمها، حينها اتخذت وأمها قرارا بأن يتركا قليوب ليعيشا في القاهرة ليبدئا حياة جديدة بعيدا عن تلاسن المحيطين بها من أقارب وجيران في غدوها ورواحها، حياة جديدة الزواج مرة ثانية ليس أمرا مطروحا فيها!

منذ تعلمها ذلك الدرس القاسي قررت ألا تثق مرة ثانية في أي من الرجال، وظل هذا السر حبيس صدرها حتى جاء جمال أبو هاشم وكشف ستره.

***

المكان: القاهرة.

الزمان: بعد هرب النونو وسميرة وسعاد.

إن كانت الاسكندرية جنة في أعين النونو وسميرة، فالقاهرة هي الدرك الأسفل من النار!

ما إن وطئت أقدام ثلاثتهم أرض القاهرة حتى أدركوا الفارق الشاسع بينها وبين الاسكندرية، لم يجدوا منها أي ترحيب يذكر، أيدي ابنائها مغلولة إلى أعناقهم من ضيق ذات اليد لا يبسطونها أي بسط للمتسولين كما أعتادوا من أهل الإسكندرية.

الكثافة السكانية الأعلى في القاهرة عن بقية المحافظات يقابلها كذلك كثافة مماثلة في أعداد المتسولين وقد حظيت هذه المحافظة بنصيب الأسد منهم.

منافسة حامية الوطيس بين كبار عصابات التسول على المناطق المسموح فيها ضمنيا بممارسة نشاطهم، ولذا لا يسمحون بدخلاء عليهم بغير حصول على تصريح شفهي بممارسة المهنة وذلك بعد سداد الرسوم المالية المقررة لذلك.

لم يقبل النونو أن يعمل ثلاثتهم تحت إمرة أحدهم مرة ثانية، ولم يقبلوا بسداد الرسوم، فغلقت الأبواب في وجوههم متعرضين لكل أنواع المضايقات من كهنة المهنة.

أجبرت القاهرة للمرة الأولى النونو وسميرة للعبث وسط أكوام القمامة التي تتكدس بها شوارعها وأزقتها بحثا عن فتات الطعام، لم يضطرا لفعل ذلك يوما في الإسكندرية الحنون، ولكن ضيق ذات اليد مع ارتفاع الأسعار منعهما من الحصول على أي طعام صالح للأكل.

يقتربان من أي كومة قمامة بالقرب من المطاعم ليبحثا بين الأنقاض عن أي بقايا يقتسماها بينهما وبين سعاد، ينتقيان ما يصلح للأكل، قد يضطرا في بعض الأحيان لإزالة عفن طال جزء من الطعام وأحيانا أخرى لا يشعران إلا بملمس الديدان الرخو وهو ينزلق بين أسنانهم فيبصقوا ما أكلاه، سعاد بجسدها الهزيل يرهقها السعي طوال ساعات النهار فتحملها سميرة أغلبه، ثم يجن الليل عليهم فيبحثون عن أي مكان يبيتون فيه ليلتهم متدثرين بالسماء والأنجم التي تزينها.

كثيرا ما اشتد بكاء سعاد من شدة الجوع وقد ضنت قمامة القاهرة عليهم بأي طعام يصلح للأكل، وكثيرا ما بكت سميرة لبكاء صغيرتها، حينها يجد النونو نفسه مضطرا للتسلل بالقرب من أحد المخابز أو أكشاك البقالة ليسرق ما يسد جوع فتاتيه، وكثيرا ما يتلق العقاب جزاء سرقته إن مسكه البائع متلبسا بجريمته.

تحرشات طالتهم من المتسولين والبلطجية وقطاع الطرق، ليل القاهرة لا يعرف للأمان طريقا!، ولكن لم يفت ذلك من عزيمة النونو وسميرة على استكمال طريق اختاراه معا.

بضع شهور مرت على ثلاثتهم على هذا الحال حتى أتي الشتاء وبرده القارس الذي لم يشغل بال النونو وقد ألف الأسوء منه في الإسكندرية، أما سميرة وسعاد فكانت المرة الأولى التي تتدثرا فيها في الشتاء بالسماء الملبدة بالغيوم، لم يعرفا شتاء غير تحت سقف بيت هلال السباعي.

***

(١٤)

على الرغم من أن جمال أبو هاشم تحدث لأكثر من ساعة كاملة إلا أن حسن زيدان لم يفهم شيئا مما قاله، فقط اكتفى بالدهشة من أسلوب جمال أبو هاشم الودود في حديثه معه.

حينما جاءه اتصال من جمال أبو هاشم توقع أن يخبره كالعادة بعنوان مسرح الجريمة الجديد ولكنه طلب منه أن يتقابلا في مقهى شعبي لم يتقابلا فيه من قبل.

ظل جمال أبو هاشم لأكثر من ساعة يتحدث عن أوضاع البلاد الاقتصادية والسياسية الحالية وحسن زيدان يكتفي فقط بإيمائة من رأسه بين حين وآخر، كان يخشى الاعتراض أو الموافقة على أي شيء يقوله علَّه يكون فخا ينصب له شراكه، لم يكن يقتنع بأي مما يقوله بل بدا عدم الاقتناع على لسان المتحدث نفسه!

إن تزمر ضباط الشرطة من تردي الأوضاع الاقتصادية فماذا يفعل المواطنون من محدودي ومعدومي الدخل!

انتقل جمال أبو هاشم للحديث عن فساد النخبة السياسية قائلا:

– عندك مثلا بتوع مجلس الشعب دول يا حسن، مفيش عضو واحد ما بيستغلش كرسيه في المجلس، الواحد من دول بيبقى بيبوس جزم أهل الدايرة علشان ينتخبوه، وبتوع الداخلية علشان يرضوا عنه، ويرشي بتوع الحزب لو نازل على قايمة ولا علشان يرشحوه هما لو حزب تقيل .. وأول ما يدخل المجلس يديهم كلهم بالجزمة! .. تخيل ؟!

– ربنا يصلح الحال يا جمال بيه .. دي قلة أصل.

– أنت مش مصدقني ؟!

قالها ضاحكا جمال أبو هاشم، ضحكة رجل يعلم الكثير من الخبايا، كان من الجلي أن جمال أبو هاشم يكن الكثير من البغض والكراهية لكل من جلس يوما على مقعد بالبرلمان، ظل يحكي لحسن زيدان ما يعرفه عن بعض النواب وكيف دخل بعضهم البرلمان فقيرا بملابس داخلية مهترءة بالية ليخرج منه واحد من الأثرياء بعدما تحول بقدرة قادر لرجل من رجال الأعمال الذين تكفي ثروة الواحد فيهم لشراء كل مصانع الملابس الداخلية بالعالم، لا أحد منهم ينفق ببذخ خلال حملاته الانتخابية إلا وكان واثقا من استرداده ما أنفقه أضعافا مضاعفة، ليس لدخوله البرلمان أي صلة بالرغبة في خدمة المواطنين من أبناء دائرته، الأولى به صرف تلك الأموال الطائلة على أهل دائرته مباشرة دون الحاجة لدخوله البرلمان، مجموع الأموال التي يصرفها المرحشين للبرلمان سرا وعلانية – بحسب قول جمال أبو هاشم –

تكفي في دورة واحدة لتسديد ديون مصر!، لو جمعها منهم رئيس البلاد لحفرَ قناة ملاحية بدايتها السويس ونهايتها السلوم حتى وإن كانت هي الأخرى بلا أي جدوى اقتصادية، ولكن العيب ليس فيهم، إنما العيب كل العيب في المواطنين الذين يصدقون خداعهم "كل مرة" !

– طبعا أنت مستغرب وبتقول هو جايبني يحكي معايا الراجل الفاضي ده؟! .. مش كده ؟!

– لأ طبعا يا جمال بيه .. بدل أنت هتحاسب ع المشاريب وأحنا في آخر الشهر كده فمش مشكلة، أدينا بنتعلم من خبرة سيادتك.

قالها حسن زيدان في سخرية ممازحا ومحاولا أن يخفي بسخريته ضيقه من هذه الجلسة التي لا يعرف ما ورائها.

– عارف رياض عامر ؟!

– مين رياض عامر ؟!

سأله حسن زيدان في غباء!، بدت الدهشة على وجه جمال أبو هاشم متعجبا من جهل الأول بهذا الشخص، فقال موضحا:

– ده عضو مجلس الشعب عن الدايرة بتاعتك هنا.

– مش متابع والله ..

قالها ضاحكا حسن زيدان.

– تبقى أكيد عارف دار أيتام الأمل اللي كنت أنت زرتها من شهرين في المنطقة عندك.

قالها في تخابث جمال أبو هاشم في إشارة لزيارة تمت بالفعل برفقة يارا ناصر لتلك الدار، فسأله حسن زيدان في ضيق لكونه تحت المراقبة:

– هو ممنوع نزور ..

استوقفه جمال أبو هاشم بإشارة من يده مهدئا ليقول:

– يا سيدي مش ممنوع .. ما تخدش الموضوع على أعصابك كده .. أنا بربط المواضيع ببعضيها، الراجل ده هو نفسه صاحب دار الإيتام دي، أو بالأصح مؤسسة الأمل للأعمال الخيرية واللي بتشرف بنفسها على سلسلة دور الأيتام اللي بالاسم ده اللي منتشره في مصر كلها، تخيل القاهرة والجيزة فيهم ٥ دور أيتام تبع مؤسسة الأمل؟!

– كتر خيره والله .. ربنا يجعله في ميزان حسناته، ماله بقى ؟!

– مش خير قوي الحقيقة.

قالها في صرامة جمال أبو هاشم وبدأ يحكي لحسن زيدان ما يعرفونه بشأن هذا الرجل.

رياض عامر كان فقيرا معدما في سنواته العملية الأولى، جاء من قرية الجعفرية بمركز السنطة بالمنوفية ليدرس الطب في القاهرة، قيل أنه من

اخترع الحمية الغذائية عن طريق الماء فقط، إذ في كثير من الأحيان لم يجد ما يعبيء به جوفه ليسد جوعه غير الماء!

عمل بعد تخرجه في القاهرة لبضع شهور واستقر بها قبل أن يطير إلى السعودية ليقضي بها عشرة سنوات قبل أن يعود ثانية فجأة إلى مصر.

عشرة سنوات فقط كانت كافية للعودة بقناطير مقنطرة من الذهب والفضة والريالات السعودية، قالوا أنه وجد كنزا في السعودية، ويقول آخرون أنه عرف طريقه للأمراء واستطاع أن يختلس آلاف الريالات دون علمهم غير العطايا والهبات التي تحصل عليها، ويقول قلة من الناس أن ثروته هناك جمعها بالحلال لكونه بارع في التجارة والاستثمار ويعرف كيف يجعل الريال يبيض ألفا من الريالات.

عاد إلى مصر حالقا لحيته التي أعفاها طوال فترة تواجده بالسعودية، أحضر أخوته الخمسة من القرية ليعيشا معه في نفس الشارع في هذه المنطقة الشعبية، اشترى بناية في هذه المنطقة الفقيرة وحولها لمستوصف صغير يقصده الفقراء، أما بقية ثروته التي جناها في غربته فدخل بها شريكا في عدة استثمارات في مجالات مختلفة، لم يضع البيض كله في سلة واحدة خوفا من مخاطرة غير محسوبة قد تؤدي لخسارة فادحة، وربما لأن سلة واحدة لن تكفيه!

ثروته راحت تتكاثر لا جنسيا، النقود لا تختلف كثيرا عن البكتريا في قدرتها على الانقسام الثنائي وبمعدلات جنونية، كل قرش ينقسم لقرشين أو عشرة لا لمليمين!

ثلاثة أعوام مضت منذ عودته إلى مصر حين تزوج من فتاة ثرية، ابنة هي لأحد المستشارين من ذوي النفوذ والسلطة خارج السلك القضائي وداخله، استخدم رياض عامر ثروته كأدوات تجميل تخفي سنوات الفقر الذي نشأ وترعرع فيه كي تقبل به هذه الفتاة ابنة الأثرياء.

النسب الذي ربطه بهذه العائلة كان سببا رئيسيا في تضخم ثروته بشكل مثير للدهشة بعد ذلك، وإن ظلت الألسنة حبيسة الأفواه خوفا من نفوذ حماه، إلى أن وصل لمقعد البرلمان في الانتخابات الأخيرة.

- وأنا إيه علاقتي بكل ده ؟!

سأله حسن زيدان في غباء واضح، فمال نحوه جمال أبو هاشم هامسا:

- عايزين نعرف الراجل ده بيعمل إيه غلط في حياته.

- عايزينك ولا عايزني يا جمال بيه ؟!

- أنت سمعتني صح .. عايزينك.

- طيب ما أنتم سهل تعرفوا كل حاجة، راقبوا تليفونه يا جمال بيه.. ده أسهل حاجة عندكم .. كان فيه المذيع الأقرع ده بيقول إنكم بتراقبوا التليفونات ببصمة الصوت بسم الله ما شاء الله.

تنبه حينها حسن زيدان أنه قد تسرع بتنمره من صلعة المذيع المشهور في سخرية منه متناسيا أن صلعة جمال أبو هاشم لا تختلف على الإطلاق عن صلعة ذلك المذيع، ولكن غرابة مطلب جمال أبو هاشم كانت هي ما أفقدت

حسن زيدان تركيزه، فلم يكن يتوقع أن يطلب الأخير مساعدته مرة ثانية بعد انتقاله للعمل بهذه الجهة الأمنية رفيعة المستوى التي تقدم له من الصلاحيات المطلقة ما يغنيه عن مقدرته التي تظل محدودة، لم يلق جمال أبو هاشم بالا لسخرية حسن زيدان من صلعه وقال في هدوء:

– بص يا حسن ..

قالها وسكت لبرهة وكأنه قرر أن يعيد انتقاء الكلمات المناسبة ثم استطرد قائلا:

– رياض عامر عضو برلمان .. معاه حصانة .. واحنا عملنا كل حاجة تخطر ليك على بال أو ما تخطرش .. مفيش حاجة تتمسك عليه !

– هو ضايقكم في حاجة يا جمال بيه في المجلس ؟!

قالها ساخرا حسن زيدان فأجابه جمال أبو هاشم بجدية واضحة لا تستدعيها سؤال حسن زيدان الساخر:

– مش شرط علشان ضايقنا يا حسن، هو بس من ساعة ما دخل المجلس والعين بقت عليه، وبالمناسبة لو ضايقنا مش هيفرق معانا كتير، ده واحد بطوله في مجلس كامل .. ولو عشرة مش واحد .. أنت عارف كويس إن الباقي دول عرايس ماريونيت بنحركهم زي ما بنحب ..

– ومطلوب مني إيه بالضبط .. ؟!

– هنروحله زيارة ودية كده أنا وأنت النهاردة يا بطل.

***

كان الأمر لا يختلف كثيرا عن البحث عن إبرة صغيرة في تل من القش!

كان جمال أبو هاشم يطلب من حسن زيدان أن يبحث بنفسه عن طرف خيط يدلهم على نقطة ضعف رياض عامر، لم يعطه جمال أبو هاشم أي معطيات تفيده في رحلة بحثه!

رغم السنوات الطويلة التي قضاها حسن زيدان في تلك المنطقة إلا أنه لم يكن يعرف شيئا عنها سوى الطريق من شقته إلى عمله فقط، كانت تلك هي المرة الأولى التي يقف فيها أمام هذه البناية التي اتخذ رياض عامر من طابقها الأرضي مكتبا له ومن باقي طوابقها مستوصفا صغيرا للكشف على المرضى من أهالي المنطقة بالمجان، أما هو وأخوته فقد ارتحلوا للسكن في تلك التجمعات السكنية ذات الأسوار شاهقة الارتفاع التي تتوافق مع ثرائهم الفاحش.

كانت الشقة التي اتخذ منها رياض عامر مكتبا لاستقبال أهالي الدائرة غاية في التواضع مفتقرة للبذخ الذي يثير أطماع الناخبين، في الصالة تتراص عدة أرائك جلدية مريحة بخلاف مكتب خشبي يجلس خلفه موظف لاستقبال طلبات أبناء الدائرة وينظم دخول وخروج أهالي الدائرة لمقابلة جمال أبو هاشم إن دعت الحاجة، لم يختف رياض عامر من دائرته بعد فوزه مثلما يفعل الآخرون!

- قول للدكتور رياض، جمال أبو هاشم مستني بره.

مسح الشاب الجالس خلف المكتب الصغير بعينيه جمال أبو هاشم من منبت رأسه حتى أخمص قدميه محاولا التنبوء بهوية ضيفيه، ثم قال في تأدب يليق بهيبة جمال أبو هاشم وحده:

- حضرتك قولي طلبك يا أستاذنا ولو كده ممكن ..

- يا عماد قوله الظابط جمال أبو هاشم بره.

هب ذلك الشاب النحيل المدعو عماد واقفا بفعل الرهبة وقد فاجأه معرفة الضابط باسمه، ظن أنهم بلا شك يتتبعونه منذ تدخينه آخر سيجارة حشيش في الخميس الماضي بعدما لم يتقبل الله توبته عن تدخين الحشيش صباح الجمعة، استأذنه مرتعدا ودخل لرياض عامر يخبره بالأمر، لم تمض دقيقة حتى وجدا بعض الضيوف يخرجون من غرفة المكتب وخلفهم رياض عامر يخرج إليهما مودعا ضيوفه ومرحبا بجمال أبو هاشم بكل ود:

- أهلا أهلا جمال بيه .. اتفضل يا جمال باشا اتفضل .. عماد جديد معانا وما يعرفكش واللي ما يعرفك يجهلك ..

تصافحا وتبادلا العناق ثم دخلا غرفة المكتب وخلفهم حسن زيدان، جلس رياض عامر خلف مكتبه العريض على غير عادته في رسالة لجمال أبو هاشم بأنه الآن في مكانة أعلى بفعل حصانته البرلمانية، لو كان ذلك اللقاء قبل الانتخابات أو أثنائها لأجلسه رياض عامر مكانه واكتفى هو بالجلوس تحت

قدميه، اكتفى جمال أبو هاشم بالابتسام كرد فعل على ذلك ورفع ساقا فوق الأخرى وقد استراح في مقعده، أما حسن زيدان فقد جلس منكمشا في مقعد مجاور لجمال أبوهاشم يغلبه الإحراج إذ لا صفة لحضوره ولا قوة حصانة تحميه أو بطش أمني يستند عليه، بطة ضعيفة بين أقدام ديناصورين!.

– تشرب إيه يا جمال باشا ؟! .. يا عبد الصمد ..

التفت الاثنان تجاه هذا العجوز عبد الصمد الذي كان يجلس جوار الباب في ركن الغرفة ولم يكونا قد التفتا لوجوده منذ دخولهما، عجوز أصلع نحيل يقوم على تلبية طلبات رياض عامر، يرتدي بدلة صيفية بنية اللون قصيرة الأكمام ويوشك أن يسقط ميتا في أي لحظة بعد أن تجاوز السبعين من عمره أو يزيد!

– شوف يا عبد الصمد البهوات يشربوا إيه .. ولا أقولك هاتلنا تلاتة جنزبيل بالقرفة بالحليب والعسل الجبلي .. حاجة هتعجبكم ..

– عظيم جدا .. أنا لما كنت في العمرة جبت معايا كام كيلو من العسل الجبلي ده والله مخصوص من ساعة ما شربت عندك الاختراع ده.

قالها جمال أبو هاشم ضاحكا محاولا تلطيف الإجواء قبل أن يستطرد:

– أخبار المجلس إيه على حس معاليك ؟!

تبادل الاثنان الحديث بلا توقف عن المجلس وأحوال البلاد السياسية والاقتصادية إلى أن دخل عبد الصمد ووضع الأكواب أمام كل منهم وعاد إلى مقعده جوار الباب متخشبا كمومياء.

– ما عرفتنيش ع الباشا .. ده زميلك يا جمال بيه ؟!

سأله رياض عامر متعجبا من هذا الرجل الذي يجلس صامتا شاخصا بناظره تجاه السقف ولا يبدو مؤهلا للعمل مع جمال أبو هاشم في عمله الجديد!

– ده أستاذ حسن زيدان، ابن خالي – الله يرحمه – وساكن هنا بالمناسبة في الدايرة عندك عند بنزينة التعاون كده يا رياض بيه، هو شغال محاسب بس كنا عايزين نعينه في مكان نضيف كده بدل مرمطة القطاع الخاص.

اندهش رياض عامر من مطلب جمال أبو هاشم الذي جاءه يطلب مساعدته رغم منصبه الجديد في الجهة الأمنية رفيعة المستوى حاليا!

– يا جمال بيه ده أنت بإشارة منك يتعين في رئاسة الجمهورية.

قالها ممازحا رياض عامر فقهقه جمال أبو هاشم متصنعا الضحك قائلا:

– مش للدرجادي يا باشا، احنا العين علينا ومش ناقصة كام عيل من العيال الصحفيين يطلع يكتب ويقولك إننا بنستغل نفوذنا .. بقولك صحيح يا رياض بيه ..

غيَّر جمال أبو هاشم دفة الحديث مع رياض عامر ليتحدثا حول الدائرة والنائب الآخر عن نفس الدائرة معطيا الفرصة لحسن زيدان للتركيز علَّه يصل إلى أي معلومة تفيدهم، طال حديث جمال أبو هاشم حتى بدأ يشعر بتململ رياض عامر فقال منهيا حديثه:

– هستأذن أنا بقى يا رياض باشا، وأستاذ حسن هيبقى يعدي عليك الـ CV والورق بتاعه يوم تاني والبركة في معاليك بقى.

قاطع حديثهما صوت أزيز هاتف محمول يأتي من ركن الغرفة إلى جوار الباب، نظر ثلاثتهم صوب عبد الصمد العجوز الذي أخرج هاتفا محمولا من جيبه، نظر عبد الصمد للشاشة ثم تلاقت عيناه مع عيني رياض عامر وأوشك على النهوض نحوه لولا أن زجره الأخير بنظرة صارمة بعدما بدا عليه التوتر لبرهة ثم ما لبث أن اختفى توتره ليقول ضاحكا:

– بس كده .. لما ييجي يخشلي على طول وما يستناش بره وأنا هعرف عماد بكده.

– عماد ده ضايع .. أبقى اعمله تحليل مخدرات وأنا واثق إنه هيبقى إيجابي.. ما تجيبش لنفسك الشوشرة يا رياض بيه .. أنت حبيبي.

قالها جمال أبو هاشم ممازحا غير قاصد أي تهديد لرياض عامر ثم نهض ثلاثتهم ليودعهم رياض عامر بنفسه حتى الباب، وجمال أبو هاشم يقتله القلق آملا أن يكون حسن زيدان قد توصل إلى أي شيء.

***

المكان: القاهرة

الزمان: أول شتاء يمر على النونو وسميرة وسعاد في قلب القاهرة.

ليل الشتاء طويل مثلما تغنى أحدهم يوما ما، ويمسي أكثر طولا إن كنت بلا مأوى تتلمس الدفء بين حوائطه.

أسفل أحد الكباري التي تكتظ بها القاهرة جلس النونو وسميرة وسعاد ليريحوا أقدامهم وقد يبيتون ليلتهم في ذات المكان بعيدا عن الأمطار التي أخذت بالهطول وأمست تغرق الأرض وتحيل الشوارع لأنهار من طين.

اخرج النونو رغيفي خبز وقرطاس صغير به فلافل ليتناولوا عشائهم، لم يكد الطعام يستقر في أحشائهم حتى ظهر من العدم ثلة من الذئاب الضالة التي تمشي على قدمين، أوغاد أفسدت المخدرات المغشوشة عقولهم وحولتها لماء أسن.

بدا جليا للنونو وسميرة أن هؤلاء الملاعين لن يتركوهم وشأنهم، إن أمعنا التحديق في أعينهم لأبصروا إبليس وزبانيته يتراقصون طربا بما سيحدث في اللحظات التالية، سميرة تدرك أنها رغم رائحتها العفنة وملابسها الرثة البالية تظل في أعينهم قطعة لحم مجانية تفوح منها روائح الهرمونات الأنثوية التي كثيرا ما تجذب ما ضل من الكلاب والذئاب والملاعين وأبناء الزنا.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا في عراك غير متكافيء بين هؤلاء الملاعين والنونو حتى فقد الأخير وعيه من شدة بطشهم ليغيب عن العالم رغم أنفه.

سميرة كفت عن نبش مخالبها في جلودهم الأكثر سمكا من جلود الخنازير وانكمشت على الأرض زاحفة بعيدا عنهم بعدما صارت وحيدة من دون سندها الذي فقد وعيه، الذعر يكبل حنجرتها ليمنعها من الصراخ، ليس بها قوة كافية لمقاومتهم وإن استمرت في خمش لحومهم بأظافرها ما منعهم ذلك عن المضي فيما أتوا من أجله، مقاومتها لم تمنعهم من شل حركتها وتكميم فمها والشروع في اغتصابها، فلا يتردد في الفراغ من حولهم غير أصوات لهاثهم كذئاب شبقة لممارسة الجنس وصوت صرخات سعاد الصغيرة التي لا تجد من ينقذهم وقد بدا أن جميع البشر قد اختبئوا في بيوتهم خوفا من زخات المطر.

النونو كتلة اللحم التي عجنت بعظمها والمتكومة على الأرض عاد وعيه لجسده الواهن، نهض بكل ما بقي فيه من قوة محاولا انقاذ سميرة من بين مخالب الملاعين، ليفجر براكين غضبهم مغرقينه بحممهم، مداهم وأسلحتهم البيضاء راحت تشق ثنايا جلده لتدفق دماؤه على الأرض مختلطة بأنهار الطين، لم تطل معاناته إذ استقرت مدية في منتصف قلبه تماما قبل أن تتلوها عشرات الطعنات حنقا وقد ضيع على هؤلاء الملاعين فرصة الاختلاء بفريستهم.

لم ينتظروا أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ليبصق عليهم أثناء صعود روحه إلى السماء وولوا فرارا، ضنوا عليه بفرصة البصق عليهم علَّ هذه البصقة الأخيرة أن تشفي غليله والنيران المتقدة في صدر سميرة.

وسط برك من الطين زحفت سميرة حتى وصلت إلى جسده المسجي وسط الطين، وضعت رأسه على صدرها وهي تبكي بكاء مكتوما وقد فقدت القدرة على الجهر بصرخات تتصارع في صدرها، هرعت إليها سعاد غير مدركة لأبعاد الموقف تبكي في حضنها فوق جسد النونو الذي كان جسدا نابضا بالحياة منذ دقائق وقت عشائهم الأخير.

***

– يعني إيه اللي أنت بتقوله ده ؟!

سأله جمال أبو هاشم غاضبا ضاربا مقود سيارته بقبضتيه بعدما توقف بالسيارة فجأة في وسط الطريق غير ملتفت لنفير السيارات الآتية من خلفه اعتراضا.

– زي ما قولتلك يا جمال بيه، مش عارف أوصل لحاجة، الدكتور ده لا عمره تاجر في المخدرات ولا في السلاح ولا ليه علاقات نسائية مشبوهة ولا تبع جماعات دينية، أنا معاك إنه مش مريح، بس أنا محتاج حاجة محددة أمشي وراها ع الأقل.

– تصدق جبت الخلاصة.

– طيب ما تراقبوا تليفوناته وحساباته الشخصية يا جمال بيه، أنتوا أساتذة في كده.

نظر له جمال أبو هاشم بطرف عينه في ازدراء وكأنه كان ينتظر هذه النصيحة وكأنها لم تخطر لهم على بال، زفر جمال أبو هاشم في ضيق ثم التفت لحسن زيدان قائلا بلهجة توحي بأنه يخاطب طفلا لم يتعد الخامسة:

– بص يا حسن، كل اللي في دماغك عملناه، موبايلاته وتليفونات المكتب وتليفونات أخواته كلها متراقبة.

– بس الآيفون اعذرني يعني بيقولوا مستحيل يُخترق.

– احنا بنعرف نخترقه ..

قالها جمال أبو هاشم غامزا بعينه في إيحاء خادش ثم تابع بنفس اللهجة التي لا تخلو من تكبر وغرور:

– على فكرة أنت طيب قوي يا حزلقوم، أنزل يا حسن هنا واتمشي لبيتك، أبقى اتعشى جبنة بالقوطة واستغطى كويس وأنت نايم، وابقى عدي عليه بكرة بالورق بتاعك يمكن يظبطك فعلا في شغلانة في البترول ولا ولا الضرايب.

خرج حسن زيدان من السيارة حانقا من سخرية جمال أبو هاشم المتعمدة منه والتقليل من شأنه فأغلق باب السيارة بعنف حاول أن يبدو عفويا تعبيرا عن غضبه.

– بالمناسبة يا حسن، رياض عامر ما بيشيلش آيفون، اخواته اللي شايلينه، هو معاه عدتين سوني ..

قالها وأشار له بيده مودعا إياه في سخرية ثم ضغط بكل قوته على دواسة البنزين ليتعالى صرير إطارات سيارته على الأسفلت قبل أن ينطلق مسرعا برعونة المراهقين!

***

على غير العادة كانت يارا ناصر هي المنتظرة لمقدم حسن زيدان في ذلك المطعم، استقبلته بابتسامتها الطفولية الواسعة المعتادة التي تضاعف من سحر غمازتيها، كان وجهها نضرا خلاف المرة السابقة ليس لكونها قد تخلصت معه من عبء السر الذي كان يثقل روحها ولكن لأنها آمنت أن حسن زيدان جديرٌ بأن تضع ثقتها به وبخاصة أن معاملته لها لم تتغير بأي حال من الأحوال سواء بالسلب أو الإيجاب.

– العزومة عليا النهاردة يا حسن.

– وأنتِ فاكراني هقولك لأ وما ينفعش الكلام ده ؟!

– لا يا سيدي مرة عليك ومرة عليا ..

– بس دي تبقى رشوة ؟!

– بص هو الصراحة أنت عارف احنا لسه قابضين فأنا عايزة آكل اللي نفسي فيه ..

قالتها في براءة طفولية فانفجرا في الضحك وبعد أن هدئت موجة الضحك المتبادل وبعد أن طلبا طعامهما سادت بينهما لحظات من الصمت.

– مالك يا حسن النهاردة؟!

– والله يا أخت يورو ..

مالت يارا ناصر على المائدة بينهما وأسندت خدها على ذراعها قائلة في هيام مصطنع أثار ضحكات حسن زيدان قبل أن تتحدث قائلة:

– عايز تيجي تطلب إيدي من ماما ولا إيه ؟!

– اشمعني يعني ؟!

– عادي يعني .. أكون صعبت عليك وقطَّعت في قلبك .. فقررت تضحي بسعادتك علشاني.

ضحك حسن زيدان من دلالها المصطنع قائلا بين ضحكاته:

– إيه الجو الأوفر ده ؟!

– يا عم ما في الأفلام بيعملوا كده !

– يا بنتي أنتِ مكبرة الموضوع جدا، وبعدين قوليلي .. هو أنا لو اتقدمتلك هتوافقي ؟!

ألقى سؤاله في جدية فأجابته دون تردد أو تفكير بجدية لم يتطلبها الرد:

– أكيد طبعا لأ .. لو كان السؤال ده قبل ما احكيلك كان (ممكن) أفكر .. غيَّر الموضوع يا حاج .. بجد قولي إيه اللي شاغلك؟!

احتل الهم قسمات وجهه مباشرة عقب سؤالها الأخير وتنهد في ضيق قائلا:

– الظابط ده اللي اسمه جمال زفت أبو هاشم.

ارتسمت الجدية على ملامحها عاقدة حاجبيها لتسأله في حذر:

– حسن هو بيجبرك على حاجة غلط ؟!

بدت الصدمة من سؤالها على وجهه وقد فهمه بإيحاء جنسي بحت فأدركت يارا ناصر ما وصل إليه، فانفجرت في ضحكها مسمعة من في المطعم جميعهم ومن خارجه وقد تخضب وجهها بحمرة الخجل، ليتخلى حسن زيدان عن عبوسه ويضحك هو الآخر وقد تصبب عرقا، فاستطردت قائلة:

– دماغكم دي على طول حادفة شمال، يا حسن أنا قصدي بيخليك تعمل حاجة ضد مبادئك؟! .. يووووه يا أخي ..

أوقفها حسن زيدان بإشارة من يده قبل أن تتمادى في أسئلتها المحرجة بغير قصد قائلا:

– خلاص فهمت قصدك والله، هو على الرغم من إنه راجل زبالة إلا إني حاسس فعلا إني بفيد العدالة، إني مع الحق مش الباطل.

– إزاي يعني؟ .. هو فعلا الجامع اللي عندكم ده بيتجمع فيه جماعات جهادية؟

سألته في دهشة يارا ناصر، أدرك أنه قد أخطأ في اختيار كلماته، فاستدرك قبل أن يخبرها بسذاجة عن مقدرته الغريبة قائلا:

– هما ناس متدينة عادي، ولو هيريحه إني أقوله أنهم ماهمش أي نشاط سياسي فمفيش مشكلة يعني بدل هبعد عن ضرره.

– استفت قلبك يا حسن .. اعمل الصح يا حزلقوم.

– هو إيه حكاية حزلقوم معاكم اليومين دول؟!

قالها حسن زيدان وسط ضحكاتها، كان يؤمن في داخله أنه خلال تعاملاته السابقة مع جمال أبو هاشم لم يرتكب ما يتعارض مع مبادئه حتى تلك اللحظة، حتى مع ذلك المدعو رياض عامر، هذا الأخير لم يشعره براحة نفسية، هناك أمر ما وراءه وقد وجد حسن زيدان أن تلك فرصة ذهبية لاختبار مدى قوة مقدرته تلك وإلى أي حقيقة ستوصله، قَبِلَ التحدي الجديد عله يكتشف مستوى أعلى من مقدرته على فرز الموجات الصوتية!

***

لاحظ حسن زيدان منذ الوهلة الأولى المعاملة الجافة التي يتلقاها من رياض عامر منذ دخوله مكتبه، رغم عدم انتظاره بالخارج كثيرا بتوصية سابقة من رياض عامر إلا الأخير استقبله بفتور وتعالٍ يختلف عن المرة السابقة، يراه رياض عامر غير جدير بأن يسرق دقائق من وقته الثمين، لولا توصية جمال أبو هاشم لأوكل الأمر لأحد مساعديه لاستقباله.

لم يلق حسن زيدان بالا لتلك المعاملة الجافة بالرغم من عدم توقعه لها، كان ذاهبا إليه بذهن صاف طامعا في سرقة أي معلومة من داخل مكتبه، هو لمزيد من الدقة كان يطمع في التلصص على الدقائق التي تلت انصرافه وجمال أبو هاشم من مكتب رياض عامر، فقط عليه التركيز متى حانت الفرصة.

لم تمض دقيقتان منذ دخوله المكتب حتى سمع رنين هاتف المكتب، زفر رياض عامر في ضيق والتقط سماعة الهاتف ليخبره عماد أن جمال أبو هاشم في انتظاره على الطرف الآخر، ارتدى رياض عامر قناع النفاق الدبلوماسي وانخرط في حديثه مع جمال أبو هاشم، كانت تلك الإشارة التي اتفقا عليها لينزلق حسن زيدان عبر نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة المكتظة بملايين الموجات الصوتية، كان يبحث عن حديث دار بين رياض عامر والعجوز عبد الصمد بعد رحيل ضيفاه، ليجد ما توقعه بالفعل!

كان هناك الكثير من التعنيف الحاد من رياض عامر للعجوز عبد الصمد الميت مع إيقاف التنفيذ لمحاولة الأخير إعطاءه الهاتف المحمول في وجود

ضيفيه، ثم تلا ذلك اعتذارات وتوسلات من العجوز عبد الصمد راجيا رياض عامر أن يسامحه وألا يدفعه الغضب لأن يقطع رزقه من هذا المكان، ثم جاء الحديث أحادي الجانب الذي انتظره حسن زيدان حيث استغرق رياض عامر وقتا طال في مكالمة هاتفية كانت بالانجليزية مع أحد ما، مع انتهاء مكالمة جمال أبو هاشم مع رياض عامر انتهت المكالمة الأخرى في الغرفة المظلمة ليسارع حسن زيدان بالانزلاق عبر نفقه المظلم عائدا لمكتب رياض عامر.

– مالك سرحان في إيه كده يا أستاذ حسن؟

قالها رياض عامر في امتعاض لم يحاول إخفاءه، تنحنح حسن زيدان قائلا وسط تلعثمه:

– أبدا يا دكتور رياض، ده الملف بتاعي وفيه الـCV.. إن شاء الله نسمع أخبار حلوة قريب من حضرتك.

ناول حسن زيدان الملف البلاستيكي لرياض عامر دون أن ينهض من مقعده في استعلاء ثم نهض بعدها مستئذنا في الانصراف.

– هستأذن بقى أنا علشان ما اعطلش معاليك أكتر من كده.

وضع رياض عامر الملف على المكتب في إهمال ولم ينهض لمصافحة ضيفه قائلا بغير ود:

– سلملنا بس على جمال بيه، إن شاء الله خير.

انصرف حسن زيدان سعيدا لصدق حدسه، توقع أن الهاتف المحمول الذي كان بحوذة العجوز عبد الصمد كان يخص رياض عامر رغم نفي جمال أبو هاشم امتلاك رياض عامر لهاتف بهذا الطراز، كانت سعادته حينها تكمن في اكتشافه أنه لا زال على الطريق الصحيح وأن رياض عامر هذا لا بد من أمر ما وراؤه يبرع في إخفائه.

خرج حسن زيدان من مكتب رياض عامر وجلس يستجمع تفكيره على مقهى قريب وأخرج هاتفه المحمول من جيبه ليجد خمسة وعشرين مكالمة من جمال أبو هاشم أتته وهاتفه على الوضع الصامت، رأي رقم هاتف جمال أبو هاشم يحاول الاتصال به للمرة السادسة والعشرين فأغلق هاتفه أملا في بعض من التركيز مع رشفات من القهوة داخل المقهى.

***

(١٥)

في عامه الجامعي الأول أدرك حسن زيدان أن تلك اللغة الأجنبية التي تعلمها في الكويت لم تكن تمت للإنجليزية بصلة، اشترك في دورة لتعلم اللغة الإنجليزية في أحد المراكز الخاصة من تلك المراكز التي تدعي كذبا أن فور انتهاءك من الدورة التعليمية بها ستجد نفسك تتحدث الإنجليزية بطلاقة أكثر من الملكة إليزابيث، وتكون تحيتك في الصباح (جود مورنينج يا بابي) بدلا من (صباح الخير يا حاج)!

اكتشف في نهاية تلك الدورة أنها لم تجعل منه خريجا من جامعة كامبريدج ولكن ساعدته بعض الشيء في فهم اللغة الإنجليزية والتحدث بها بالقدر الضئيل الذي يمكنه من التواصل واستكمال الدراسة بكلية الصيدلة التي كان يدرس بها قبل فصله.

لم يكن قد فهم الكثير من المكالمة التي دارت بين رياض عامر والطرف الآخر، رياض عامر كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة بالغة وكأنه تربى بقصر

الملكة بإنجلترا، احتوت المكالمة على كثير من المصطلحات المعقدة التي لم يتمكن حسن زيدان من فهمها، ما توصل إليه أن هذا الرجل أكثر من ذكر كلمة "نبات" بالإنجليزية (Plant)!

الأمر كما اعتقد حسن زيدان لا يحتاج لمزيد من التوضيح، ما توصل إليه هو أن رياض عامر يستغل حصانته البرلمانية للإتجار في المخدرات ومخدر الحشيش على وجه التحديد، فاسد آخر هو ضمن آلاف الفاسدين والمفسدين الذين لا يجدون حرجا في بناء ثرواتهم فوق جثث آلاف من الشباب الذين يقعون في شراك الإدمان.

بارع هو رياض عامر لدرجة مكنته من التواري عن أعين الأمن كل تلك الفترة دون أن يثير حوله الشكوك، بارع هو في تضليلهم وجعلهم يتتبعون هواتف لا يعقد عبرها صفقاته، مَنْ مِنْ رجال الشرطة سيفكر في التصنت على هاتف رجل عجوز بالكاد يعد لسيده القرفة بالزنجبيل والحليب والعسل الجبلي!

ولكن كان هناك سؤال لم يجد له حسن زيدان إجابة واضحة ..

"أين يقوم هذا البارع بتخزين بضاعته مخفيا إياها بعيدا عن أعين الجميع؟!"

شغله التفكير في هذا السؤال طوال الطريق إلى بيته، انعزل عن العالم متخبطا في متاهات التفكير لينجو بأعجوبة في دنيا الواقع من ثلاث سيارات

كادت أن تدهسه وعدة رجال اصطدم بهم وكادوا أن يفتكوا به وثلاث سيدات اتهمتنه بالتحرش بهن حين وجدهن بين أحضانه!

لاحت له بادرة أمل وهو يلج المفتاح في باب شقته، يحتاج فقط لأن يرقد في هدوء في المغطس وسط المياه الدافئة منفردا بنفسه ولفافة تبغ وقدح من القهوة ليكتمل التصور الذي توصل إليه في عقله.

– منور يا جمال بيه.

قالها حين ضغط على زر إنارة الصالة ليجد جمال أبو هاشم يجلس متحفزا على الأريكة والغضب يطل من عينيه، تنبه حينها لرائحة مصدرها سحب دخان السجائر التي تكاثفت في فراغ الصالة، كان من السخف أن يسأل جمال أبو هاشم كيف دخل الشقة دون مفتاح، كما بدا له أن جمال أبو هاشم لم يمتلك قدرا ولو ضئيلا من البال الرائق ليسأله هذا السؤال السخيف، ولم يتمتع يوما جمال أبو هاشم برحابة الصدر ليتقبل اعتراضه على دخوله شقته بغير إذنه!

– أنت قافل موبايلك ليه يا حيوان؟! .. أنا قولت إنك اتكشفت.

– اتكشفت! .. يا جمال بيه هو أنا رايح ليه بصفقة سلاح؟!، أنا واحد عادي خالص من عامة الشعب وابن من ابناء الدايرة رايح لسيادة النايب يشوفله شغلانة في البترول ولا الضرايب ولا الكهربا .. ولا معاليك نسيت ولا إيه؟!

قالها حسن زيدان ساخرا فازداد وجه جمال أبو هاشم تجهما قائلا:

- هنبدأ الفزلكة اللي مش وقتها يا .. ابن الدايرة.

- أصلك مكبر الموضوع، موبايلي فصل شحن أهو .. شوف .. مش أكتر ولا أقل.

قالها ولاح له بهاتفه المحمول أمام وجهه، شاشة معتمة لهاتف لازال مغلقا، لم يمتلك جمال أبو هاشم مقدرة سحرية تمكنه من الكشف على شحن بطارية الهاتف عن بعد.

- وصلت لإيه المرادي؟

- في الواقع ..

- انجز يا حيوان ..

- غالبا كده بيتاجر في الحشيش.

- أنت عبيط ! .. مستحيل.

تجهم وجه حسن زيدان من إهانة جمال أبو هاشم، أعتاد ألا يغضب من وصف الأخير له دائما بالـ"حيوان" وقد أخبره جمال أبو هاشم في مرة أنه لا يعد لفظة "حيوان" سبابا لذا يستخدمها بدلا من السباب القبيح الآخر الذي لا يفتأ يذكر فيه أعضاء الأمهات التناسلية والذي تاب عنه وأناب منذ أدى عمرته الأخيرة والوحيدة والتي لا يمل من الإشارة إليها في أي مناسبة،

استفز حسن زيدان أن يوصف بالعبيط فقرر ألا يعطيه كل ما لديه، ضيقه وضح في لهجته وتلعثمه حين رد على جمال أبو هاشم قائلا:

– مش عبيط يا فندم، كان فيه مكالمة بينه وبين واحد كلها بالإنجليزي كرر فيها كلمة "Plant" دي أكتر من مرة، حضرتك عارف طبعا أن بلانت دي يعني نبات .. ولا إيه؟!

رمى حسن زيدان كلماته الأخيرة في سخرية من جمال أبو هاشم، فكشر الأخير عن أنيابه قائلا في غرور:

– أنا يا حيوان داخل شرطة بـ٩٠٪ مش بـ ٥٠٪.

– طب ما أنا كنت في صيدلة.

قالها حسن زيدان رافضا فكرة التعالي الواضح في إسلوب جمال أبو هاشم بعدما لم ينجح في إهانته.

– كنت .. وسقطت في صيدلة لحد ما اتفصلت، علشان جايب ثانوية عامة من الخليج ما تسواش تلاتة تعريفه، أنت بس شكلك نسيت!.

ساد الصمت بينهما للحظات وكلاهما يفكر في أن هذا الأسلوب المتبادل يليق أكثر بالأطفال!

– المكالمة احنا ما استقبلنهاش.

– مش ممكن ما تمتش من تليفونه مثلا.

قالها حسن زيدان في تخابث غير راغب في كشف جميع أوراقه، فرد عليه جمال أبو هاشم وقد استعاد هدوءه:

– احنا مراقبين كل التليفونات، مكالمة بالأهمية دي مش هيعملها غير من تليفونه.

– يا جمال بيه بقولك أنا سمعت المكالمة زي ما أنا سامعك بتتكلم قدامي دلوقتي.

سادت لحظة من الصمت حاول فيها جمال أبو هاشم التفكير في مدى منطقية اتهام حسن زيدان لرياض عامر بمثل هذا الاتهام الخطير، ثم قال بهدوء مشاركا أفكاره مع حسن زيدان كعصف ذهني مستعرضا جميع الاحتمالات:

– لو رياض عامر بيتاجر في المخدرات كانت ريحته فاحت من زمان قوي.. من قبل المجلس.

– أو يمكن عارف يداري على نفسه كويس.. بيرش ع الحبايب كويس يعني.

نظر له في ازدراء جمال أبو هاشم وقد فهم ما يرمي إليه من إهانة قائلا:

– الرشاوي مش دايما بتنجح .. لازم هيتشم .. وبعدين لو بيتاجر .. بيخزن فين ؟!

– مكان أمان والجن الأزرق شخصيا مش هيفكر فيه.

– هيخبيه في جامع يعني !

– أو دار أيتام من الدور بتاعته اللي مغرقه الجمهورية.

عاد الصمت يخيم على المكان بعد جملة حسن زيدان الأخيرة، استراح جمال أبو هاشم في جلسته واضعا ساقا فوق الأخرى مشعلا سيجارة جديدة تحثه على التفكير في كلمات حسن زيدان الذي قطع تفكيره قائلا:

– باشا ممكن تطفي في الطفاية أو على إزاز الترابيزة نفسه .. بلاش السجادة بالله عليك.

لم يعره جمال أبو هاشم اهتماما وقد استغرق في التفكير في احتمالية استخدام رياض عامر لدور الأيتام التي تشرف عليها مؤسسة الأمل للأعمال الخيرية في التغطية على نشاطه، ثم ابتسم قائلا:

– والله يا حسن ممكن يبقى معاك حق ..

– آه طبعا علشان السجادة ما تولعش، هتضيع عليا فلوس التأمين.

– "دار أيتام"! .. ابن الجنية .. ده المكان الوحيد اللي صعب يخطر على بال حد، البضاعة هتبقى مساعدات داخلة وخارجة قدام عين الكل في عز النهار، واللي يضاعف الشكوك أن الدور كلها ما بيشتغلش فيها غير قرايب رياض عامر بس، مشغل العيلة كلها في الدور دي .. وكلهم في النهاية تحت إدارة إخواته شخصيا.

كان جمال أبو هاشم في تلك اللحظة يجهر بكل الشكوك التي تدور في رأس حسن زيدان ويتفق معه بشأنها.

– برافو يا حسن .. احنا نهاجم الدور كلها في وقت واحد بعد التنسيق مع مديريات الأمن في المحافظات التانية، بس المشـ ..

– غلط يا جمال بيه.

قاطعه حسن زيدان بإشارة من يده باسما، فعقد جمال أبو هاشم حاجبيه في استياء قائلا:

– بسم الله ما شاء الله .. بقيت تعلمني الصح والغلط !

– مش قصدي طبعا .. بس أنا شايف ..

– شايف ! !

قالها جمال أبو هاشم في استهزاء واضح ولكن حسن زيدان لم يلتفت لاستهزائه وتابع:

– شايف إني أروح زيارة هناك الأول، ع الأقل للدار اللي رحتها آخر مرة.

ارتسمت ابتسامة عريضة على فم جمال أبو هاشم، لم يستطع أن يكتم سعادته فبدت جلية على وجهه امتنانا بعرض حسن زيدان الذي جاء بوجهة نظر أكثر حكمة بالفعل بل وكان ذلك دليلا على تلك الحماسة البادية في نفس حسن زيدان لمساعدته في الإيقاع برياض عامر.

– فكرة حلوة يا أبو علي، بس ما تنساش تاخد حبيبة القلب معاك.

عقد حسن زيدان حاجبيه معبرا عن غضبه فنهض جمال أبو هاشم منصرفا وربط على كتف الأول قائلا في هدوء موضحا:

– روق يا حسن .. أنا قصدي علشان محدش يشك فيك مش أكتر لو روحت بطولك.

***

المكان: القاهرة

الزمان: صبيحة مقتل النونو.

سميرة بالكاد تمشي متحاملة على أوجاع روحها وجسدها ساحبة سعاد إلى جوارها، هما للزحف أقرب، لا تكاد تشعر بالزمان أو أبعاد المكان من حولها، بغير وعي تسير نحو وجهتها غير ملتفتة لأنات سعاد من كثرة المشي ولا تجيب على نداءات الصغيرة ولا تلقي بالا لتعثراتها في الوحل من أثر الأمطار التي غسلت جسدها ولم تغسل تلك الملوثات التي التصقت بروحها، في عالم آخر تماما هي، تسترجع ما حدث في الليلة الكئيبة المنصرمة وقد تحجرت الدموع في مقلتيها من هول ما رأت.

وصلت وجهتها مع نسمات الصباح الأولى، أجلست صغيرتها سعاد على الدرج الرخامي البراق الذي غسلته مياه الأمطار، مسحت على وجه الصغيرة وحاولت الابتسام مطمئنة إياها قائلة:

– سعاد يا حبيبتي .. استنيني هنا وأوعي تتحركي أبدا من هنا مهما حصل أحسن يضربونا تاني.

– أنتي رايحة فين؟! .. خديني معاكي.

الوجع الذي يتصارع في صدرها طفح دموعا غزيرة من عينيها قائلة وسط نشيج مستمر ومخاط يسيل من أنفها:

– لا يا سعاد مش هينفع، أنا هروح أضربهم واطلع (...) أبوهم .. هرجعلك والله .. بس أوعي تتحركي من هنا مهما حصل .. سامعاني يا سعاد ؟! .. هجيبلك شوكلاتة وأنا راجعة لو فضلتي مكانك، بس هجيبها من بعيد.

طبعت قبلة على رأس الصغيرة، التي أخذت في البكاء ملقية جسدها الضئيل في حضن سميرة في عناق طويل، ربطت الأخيرة على كتفها محاولة طمئنتها وتركتها ورحلت دون أن تلتفت إليها قبل أن تتراجع عن قرارها.

سميرة ظنت أن هذا هو القرار هو الوحيد الصحيح الذي اتخذته طوال حياتها.

***

لم يكن حسن زيدان يرغب في إشراك يارا ناصر فيما بينه وبين جمال أبو هاشم، ولكن في هذه المرة كان جمال أبو هاشم معه كل الحق، زيارته بمفرده للمقر الرئيسي لدور أيتام الأمل كانت ستثير الشكوك بالفعل، بل ولن تمكنه من التفرغ للإنزلاق لغرفته المظلمة عبر نفقه المظلم، هو يريد قضاء أطول وقت ممكن داخل المكان متفرغا فقط للتلصص على أي شيء يدعم شكوكه، ولم يكن ذلك ليتأتى له إلا بالذهاب بصحبة يارا ناصر التي تبرع في قضاء أطول الأوقات وسط الأطفال متربعة في بؤرة اهتمام الجميع.

رحبت يارا ناصر بالأمر بشدة، سعادتها كانت بالغة بالعرض الذي تقدم به حسن زيدان، هذا العرض الذي سيمكنها من قضاء وقت رائع معه بالإضافة للهو مع الأطفال الأيتام، يطرب قلبها لإدخال السرور على قلوبهم النقية.

– بس اشمعنى الدار دي يا حسن ؟! .. ما تيجي نروح دار جديدة أو أي فرع تاني تبع مؤسسة الأمل .. احنا كنا هناك قريب ..

– الأقربون أولى بالمعروف يا يورو، دول في حتتي وأحب أقدم ليهم كل خير.

– أنا فخورة بيك يا حسن.

- كله بتوجيهات معاليكي يا فندم.

قالها حسن زيدان وهو يرى السعادة تتقافز في عيني يارا ناصر لتضحك الأخيرة بينما كان الألم يعتصر قلبه، هو في ذلك الوقت كان كذابا أشرا وآلمه أن يكذب عليها لتصحبه في زيارته وإن خفف من ألمه أن نيته لم تكن إلا لخير غير عابيء بأن الطريق إلى جهنم محفوف - أغلب الأوقات - بالنوايا الحسنة.

***

المكان: القاهرة.

الزمان: قبيل صلاة المغرب، في اليوم التالي لرحيل سميرة.

ترجلت سيدة ارستقراطية أنيقة وصديقتها من المقعد الخلفي لسيارتها، السيدتان لا يمكن بسهولة تحديد عمريهما، فثرائهما الواضح يخفي كثيرا من بصمات الثلاثين سنة الماضية التي عاشاها، تلك سمة الثريات.

– إيه البنت اللي نايمة في التلج ده؟ .. يا قلبي عليها.

قالتها صديقتها متصنعة التأثر، فبادلتها بالمثل.

طرقت الباب، ليفتح أحدهم الباب بسرعة وكأنه جالس خلفه في انتظارهما.

– تعالى معايا كده نشوف البنت دي.

– ملناش دعوة يا هانم.

قالها في تأدب، ولكن سرعان ما لحق بها بعدما زجرته بنظرة أجمته وأبلعته لسانه.

ربطت بأطراف أصابعها إنفة على كتف الصغيرة النائمة مفترشة الرصيف جوار المبنى، استيقظت الصغيرة ناظرة لهم ثم بكت متذكرة غياب سميرة عنها.

- بتعيطي ليه بس يا حبيبتي؟

ثم التفتت إلى الرجل الواقف متأففا جوارها مصدرة أوامرها التي لا تقبل النقاش:

- دخلوها جوه بسرعة.

- يا هانم، الموضوع ليه نظام والبيه كده هيتضايق.

- أنا قلت تدخل جوه.

صرامتها وهي تقذف كلماتها الأخيرة في وجهه أجمته.

- أنت اسمك إيه يا حبيبتي؟

- سعاد.

قالتها سعاد وقد هدأ بكاؤها قليلا، ودخلت معهم ذلك المبنى، لم تكن تعرف حينها أنها ستقضي بين جدرانه سنواتها التالية، استجابت لهم عاصية أمر سميرة التي اختفت لليوم الثاني على التوالي.

تركتها سميرة في ذلك الصباح الكئيب وابتعدت عدة شوارع بعيدا عنها قبل أن تلقي بجسدها أمام هذه السيارة المسرعة متحررة من عذاب مستعر داخلها لتفيض روحها لاحقة بروح النونو باصقة على هذه الحياة التي لم تر منها خيرا بعدما اطمئنت على مصير سعاد، توقعت تسليمها من قبل أهل الخير إلى داخل ذلك المبنى المخصص لرعاية الأيتام والمشردين.

***

يارا ناصر تؤمن إيمانا يرتقي لمرحلة اليقين أن دور الأيتام معظمها شر ولكن لا بد منه، تحتوي بين جدرانها أطفالا تنصلت عائلاتهم من الإنفاق عليهم وآخرين ضحية زنا بأم لم تصن شرفها، جمعهم الناس لتأويهم أربعة جدران سيكونون أخف وطأة عليهم من مخالب الشوارع وأنيابها التي لا ترحم ضعيفا إذا ما جن عليه الليل، ربما يهربون من مخالب وأنياب ليل الشارع ليجدوا أنفسهم بلا وعي أو إدراك بين جدران دور الأيتام فريسة سهلة لا حيلة لها بين أنياب ومخالب أصغر لموظفي الدار الذين لا يعطونهم الرعاية الكاملة، يعد أكثرهم دوره متمثلا في وظيفة بمرتب يحميه من شبح البطالة ويحاول بعض آخرون التكسب من هذا المكان بالاستيلاء على أموال الصدقات والهبات والعطايا التي يَمن بها أهل الخير فلا يصل إلى الأطفال إلا الفتات الذي يستر عوراتهم ويسد بعضا من جوعهم ليبقيهم على قيد الحياة، قلة تكاد تنقرض هي من ترأف بحال هؤلاء الذين حملتهم أقدارهم للعيش بين هذه الجدران لسنوات وإن طالت فما تلبث أن تلقي بهم ثانية إلى ظلم الشارع وظلم مجتمع بأكمله لا يُقدِّر أن هؤلاء الأطفال الذين صاروا شبابا ما هم إلا ضحايا لا ذنب لهم فيما كُتِبَ لهم من أقدار!

عندما تجلس يارا ناصر بينهم ما تلبث أن تخفي - خلف قناع سعادتها- حزنا بالغا وحسرة على حالهم إذ سرعان ما تلاحظ افتقارهم للتربية الأخلاقية القويمة، وداعتهم المؤقتة في بداية اللقاء ما تلبث أن تتحول إلى استجداء

للعطايا والصدقات وكأن المشرفين على تلك الدور يعلمونهم التسول بدلا من مكارم الأخلاق علّه ينفعهم إن وجدوا أنفسهم مرة ثانية فجأة بين مخالب الشارع الذي لا يرحم بلا مأوى!

خلال أنشطتها التطوعية كثيرا ما مرت عليها وقائع تتعلق باعتداءات بدنية وجنسية على الأطفال بدور الرعاية تلك، لا سند لهم في تلك الحياة، الجلد بالسياط والضرب بالعصي الخشبية ربما يكون العقاب الأخف وطئة لهم، الاعتداءات الجنسية على الأطفال والفتيات أحيانا ما تفوح روائحه القذرة وتصل إلى المجتمع المتغافل خارج أسوار تلك الدور، وقليلا ما يتحصل المذنبون على القصاص العادل.

دائما يراود يارا ناصر حلم واحد تتمنى تحقيقه، أن تنشيء دارا لرعاية الأيتام والمشردين من الأطفال وتتولى الإشراف التام عليه بنفسها وتتفرغ تماما لذلك كل التفرغ، تظل ما بقي من عمرها بين جدرانه لا تبرحه إلا إلى قبرها، دار تراعي إنسانيتهم وترأف بحالهم ولا تشارك المجتمع والزمن في ظلمهم، دار تعيد تأهليهم وإعدادهم لإعادة دمجهم مرة ثانية في نسيج المجتمع، كثيرا ما أخبرت حسن زيدان بهذا الحلم وكثيرا ما أخبرها أنه يوما ما سيتحقق.

استقبلهما مدير دور الأمل بنفسه كعادته في مكتبه، قروي هو قرر ارتداء ملابس باهظة الثمن – دلالة على الثراء – لا تتناسق أي قطعة يرتديها مع الأخرى، تعلقت عينا حسن زيدان بالإسم الموضوع على المكتب.

" خالد فتحي عامر"

هو شقيق رياض فتحي عامر.

بمن يثق رياض عامر من أجل نشاطه المشبوه إن لم يثق بأخيه!، كانت جلسة ودية من الأخير للترحيب بالضيفين، أعاد خالد عامر خلال تلك الجلسة على مسامعهم مرة ثانية ما تقوم به سلسلة دور الأمل لرعاية الأيتام من مجهودات لإعادة تأهيل الأطفال من أجل اللحظة المناسبة التي يشرفون عليها بأنفسهم لإعادة دمجهم في نسيج المجتمع.

– طيب يا أستاذ خالد، احنا نقدر نساعد بأي حاجة؟!

– المصاريف زي ما حضرتك عارفة يا أستاذة يارا بيتكفل بيها بالكامل– لجميع الفروع – دكتور رياض عامر، أي حاجة بنحتاجها بيوفرها بنفسه، وجودكم مع الأطفال من وقت للتاني هو المطلوب بس.

ظل الحوار سجالا بين خالد عامر ويارا ناصر بينما كان حسن زيدان في غرفته المظلمة يبحث بين الموجات الصوتية عن أي ذكر للحشيش أو المخدرات أو البضاعة فلم يجد، حاول أن يبحث عن صوت رياض عامر الذي يتشابه كثيرا مع صوت أخيه حتى وجده يتحدث مع أخيه عن "سعاد حسني"!

كان حسن زيدان يعرف أن جميع الأطفال في هذه الدار وفي الفروع الأخرى يحملون أسماء المشاهير من العلماء والأدباء والممثلين أو لاعبي كرة

القدم من الذين تتصدر صورهم أغلفة المجلات، قابل في المرة السابقة سعاد حسني، ونجيب محفوظ ومحمود الخطيب وصالح سليم وعبد الحليم حافظ وعادل إمام وفاتن حمامة وغيرهم، وكان الغرض من ذلك مثلما أخبرهم خالد عامر في المرة السابقة هو زيادة ثقة الأطفال في أنفسهم ليأصلوا في نفوسهم الشعور بألا فرق بينهم وبين هؤلاء المشاهير، كان حديث رياض عامر مع أخيه حول سعاد حسني يدور بشأن تجهيزها إذ اقترب دورها!

أسرَّ حسن زيدان هذا الأمر في نفسه.

- أستاذ حسن أنت تعبان ولا إيه ؟!

لم ينتبه حسن زيدان لنداء خالد عامر وإن أعادته لكزة من ذراع يارا ناصر من غرفته المظلمة لينزلق عائدا بسرعة عبر نفقه المظلم قائلا:

- لا يا أستاذ خالد أنا بس سرحت في مصير الأطفال التانية اللي في الشارع! .. ربنا يتولاهم والله، يا ريت كل الناس زي الدكتور رياض عامر.

- طيب ياللا بينا ناخد جولة في الدار كده علشان تشوفوا بنفسكم المجهود اللي بيعمله سيادة النائب ربنا يجعله في ميزان حسناته، واللي بالمناسبة متطبق في جميع فروع المؤسسة مش هنا بس، أنتوا المرة اللي فاتت رفضتوا ناخد لفة في الدار واتحججتوا إن الوقت ضيق، المرة دي مش هينفع بقى.

كانت الدار تتكون من خمسة طوابق بخلاف الطابق الأرضي حيث مكاتب الإدارة والمكتبة والمسجد والعيادة الصغيرة بخلاف الحديقة الصغيرة

أمام المبنى، الطابق الأول مخصص لصالة الطعام وبقية الغرف للأنشطة، أما الطابق الثاني فمخصص للأطفال المستجدين والثالث للصبية والأطفال القدامى والرابع للفتيات المستجدات والخامس للفتيات القدامى ويفصل الطابق الثالث عن الرابع بوابة حديدية ضخمة.

كانت السمة المميزة للمبنى بأكمله من الداخل والخارج هي الفخامة، ينفق رياض عامر ببذخ واضح على الدار، الأطفال والصبية دائما كانوا في قمة النظافة ويتلقون دائما أعلى مستويات الاهتمام، لاحظ حسن زيدان الانبهار يطل من عيني يارا ناصر رغم أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يقوما فيها بجولة بين طوابق الدار.

قضيا وقتا طويلا ممتعا مع الأطفال ووزعا عليهم الهدايا المسموح بدخولها فقط وهي ألعاب الأطفال والدمى، حاول حسن زيدان أن يبحث بين الموجات الصوتية عن أي شيء يدين رياض عامر فلم يجد، كانت الجدران تردد صدى ضحكات الأطفال وقلما تردد بكائهم وقت الكشف الطبي الدوري الذي يتم لهم ويشرف عليه رياض عامر بنفسه.

ودعهما خالد عامر بنفسه حتى باب الدار فأبى الفضول إلا وأن ينشب مخالبه في صدر حسن زيدان ليدفعه لسؤال خالد عامر.

– كان فيه بنوتة هنا إسمها سعاد حسني، مش شايفها النهاردة يا أستاذ خالد!

– اشمعنى سعاد حسني يعني يا أستاذ حسن ؟!

سأله في ريبة خالد عامر، بينما حرقته يارا ناصر بلهيب نظرات الغيرة.

– أبدا، هي بس روحها فعلا من روح السندريلا الله يرحمها تحس إن لها نفس الحضور، لفت انتباهي إنها مش موجودة النهاردة.

قطب خالد عامر جبينه في أسى قائلا:

– والله الواحد مش عارف يقول إيه؟! .. أنا مش عايز أحول الدار دي لسجن للأولاد هنا .. بعد ما سعاد – ربنا يسامحها – قضت فترة طويلة وكويسة هنا هربت وما عرفناش راحت فين .. مش قادر أفهم إزاي تختار ترجع برجليها لعيشة الشارع تاني!

– مش يمكن حد زعلها !؟

قالها في تخابث حسن زيدان، فنظرت له يارا ناصر في لوم لم يستطع إخفاء غيرتها، ولكن خالد عامر أجابه في برود واضح من أثر استيائه من تخابثه:

– أظن بعد جولة حضراتكم جوه مش من الأصول نقول أن فيه حاجة ممكن تضايق أو تزعل ولادنا واحنا ما بنتسخرش فيهم حاجة حتى لو طلبوا عنينا!

لم يعقب أو يعتذر حسن زيدان واكتفى بالصمت فبادرت يارا ناصر بالاعتذار وقد تملكها الإحراج.

– شرفتونا يا أساتذة.

قالها خالد عامر في برود منهيا الزيارة بلهجة تفتقد الود!

***

المكان: القاهرة.

الزمان: وقت زيارة حسن زيدان ويارا ناصر الأولى لدار الأمل لرعاية الأيتام.

- حضرتك بتبصلي كده ليه؟!

تنبه حسن زيدان لكونه قد أطال النظر كثيرا لسعاد حسني، تلقائيتها في الحديث ومرحها لا يعكسان على الإطلاق نشئتها بين جدران هذه الدار.

تنحنح حسن زيدان، هاربا من نظرات يارا ناصر التي تحرقه بها حاول محرجا وسط تلعثمه أن يشرح لسعاد حسني ما يدور بذهنه ملتزما التأدب كي لا يتسبب في جرح شعورها، ضحكت بتلقائية ضحكات نبعت مباشرة من قلبها قائلة:

- حضرتك مفيش حاجة تخليك تستغرب، أنا الصراحة مش فاكرة أي حاجة عن طفولتي، ولا اعرف مين أبويا ومين أمي، ساعات وأنا نايمة يجيلي أحلام كده عن أب وأم وأخ كنت عايشة معاهم، ما بقدرش أميز أي تفاصيل عن الأحلام دي لما بصحى.

مالت نحوهما خافضة صوتها قدر الإمكان مستطردة:

- أنا كان ليا عيلة وعايشة معاهم، جايز اكون اتخطفت بقى ولا تهت منهم في يوم من الأيام، في النهاية ده قدري اللي ربنا كتبهولي، بفتكر عيشتي

في الشارع زمان وأنا صغيرة وإن كان ليا أخت تقريبا وأخ عيشوني معاهم ومرة واحدة اختي اختفت بعد ما اخويا مات قدامي، ده المشهد الوحيد اللي أنا فاكراه، منظر الدم وهو سايح منه، كون إن ربنا نجاني وكرمني بعيشة كريمة وسط المكان المحترم ده ووسط الأطفال دول اللي كان ممكن مصيرهم يبقى أسود ومنيل بنيلة زي ما حصلي زمان دي حاجة بتبسطني وبتحسسني قد إيه ربنا كريم، تخيل كده وأنت على الصراط يوم القيامة والصراط يتهز من تحتك وتبدأ تسقط في النار وحاسس صهد لهيبها خلاص هيسيح لحمك تلاقي إيد بتتمدلك وترجعك الجنة، صحيح مش الفردوس الأعلى يعني زي العيشة وسط أهلك، ولكن الحمد لله أولا وأخيرا إني ربنا بعتلي الناس المحترمة دي نجدة ليا، هو الواحد عايز إيه زي ما علمونا في الكتب (مأكل ومشرب وملبس ومأوى) .. ودول كلهم الحمد لله اتوفرولي وضيف عليهم ولاد وبنات زي العسل عايشة معاهم وكلنا معززين مكرمين .. احنا مش مقدرين حجم النعم اللي ربنا بيكرمنا بيها يا أستاذ والله وناسيين إن فيه الأسوأ والأوحش ممكن نبتلى بيه ..

صمتت لبرهة، ثم مسحت دمعة تفلتت من عينيها وابتسمت قائلة:

– ربنا يرزقنا السعادة وراحة البال يا أستاذ .. دول أحلى رزق في الدنيا والله.

***

– يعني أنت عايزني أروح أقبض عليه علشان اتوتر ؟!

قالها غاضبا جمال أبو هاشم بعد سماعه ما نقله له حسن زيدان بعدما فشل الأخير في التوصل إلى أي شيء يدين رياض عامر سوى ما يخص سعاد حسني الفتاة الجميلة التي اختفت من الدار والتوتر الذي اجتاح ملامح خالد عامر حين سأله حسن زيدان عنها!

– مفيش أي سيرة للمخدرات يا جمال بيه، الراجل ده غالبا كده – لا مؤخذة – قواد .. بيتاجر في لحم البنات اللي عنده في الدار، أنت عارف أن سوق البنات القاصرات بيكسب قوي بين العرب والخلايجة، وكمان ..

– من غير تهتهة .. عندك إثبات ؟!

قالها غاضبا جمال أبو هاشم في نفاد صبر وقد ضاق بتلعثم حسن زيدان.

– يا فندم أنا دوري اكشفلك التهمة، الإثباتات دي – سامحني – شغلتكم.

أمسك جمال أبو هاشم بتلابيب حسن زيدان في وسط المقهى مدفوعا بثورة غضبه صائحا:

– حسن يا جربوع، أنت نسيت نفسك .. أنت هتعلمني شغلي يا حيوان؟!.. لو مش عارف تساعد يبقى تحط لسانك في (....) – لفظ قبيح دارج يعني المؤخرة – وتسكت واحنا نتصرف بطريقتنا.

لم يتحرك حسن زيدان وكأنه قد تجمد في موضعه، تمثال مذعور من لحم ودم، تمثال بالكاد يتنفس، فقط ترقرقت عيناه بالدموع ضعفا لقلة حيلته، أرخى جمال أبو هاشم قبضته عن ملابسه زافرا في ضيق، صمت حسن زيدان لوهلة ثم تحدث في حزن متلعثما:

– يا جمال بيه الراجل ده لو طلع بيتاجر في البنات الصغيرة وطلع قواد فعلا أنا اللي مش هسيبه، الراجل ده أنا واثق إن وراه حاجة، أنا كان عندي عيلين صغيرين كانوا هما جناحاتي اللي بطير بيها للجنة، كل ما اتخيل إن واحد ابن كلب زي ده بيستغل عيال صغيرة ويتاجر بشرف بنات بكون عايز أخصيه، الكلاب اللي زيه هم اللي مخليين البلد صعب يتعاش فيها، وأنا لما صدقت اعمل حاجة أحس إن ولادي فخورين بيها في جنتهم.

– أقعد يا حسن ..

قالها جمال أبو هاشم في ضيق محاولا السيطرة على غضبه وقد أدرك أنه قد ضغط على حسن زيدان أكثر من اللازم بعدما رأى خيطا رفيعا من الدماء يسيل من أنفه، ناوله منديلا يوقف به النزيف قائلا في هدوء محاولا تهدئته.

– بص يا حسن .. احنا مضغوطين الفترة دي جدا .. أنا بثق فيك ثقة عمياء زي ما أنت عارف كويس .. بس لازم دليل، وبعدين البنات وهيجوزهم للخلايجة، الرجالة بقى هيتجوزهم هو؟! .. لازم دليل على كلامك المرسل ده يا حسن .. وبعدين مش سوق العبيد ده اللي هيجيب الثروة دي كلها!

– طيب يا جمال بيه ابعتوله تفتيش مفاجيء من الشئون الاجتماعية.

– هو مش اهبل يعني للدرجادي وأكيد مظبط أموره، وبعدين الشئون الاجتماعية هتتحارب على الفيس بوك لو اتعرضوله ..

– طيب هروح ليه المكتب تاني واجرب يا جمال بيه واتحجج بأي حجة..

– أنا مقدر إنك عايز تساعدني .. بص، هو لو اللي في دماغي صح .. هتلاقيه هو اللي بيتصل بيك تروح ليه ..

– ليه بتقول كده ؟!

– خلينا نستني ونشوف.

قالها جمال أبو هاشم مشعلا سيجارة جديدة هاربا من تساؤلات عيني حسن زيدان التي تحاول اختراق نواياه، كان واثقا من اتصال رياض عامر بحسن زيدان في الأيام التالية، لم يشأ إخبار حسن زيدان بالسبب حتى لا يخطيء التصرف.

***

افتقد حسن زيدان التركيز طوال ساعات العمل في اليوم التالي، كان يفكر في الطريقة التي تمكنه من كشف الجرائم التي يرتكبها رياض عامر، يبحث عن طريقة يدخل بها دار الأيتام ثانية في غير وجود خالد عامر، الأخير لن يسمح له بدخول الدار مرة ثانية بعد حديثهما سويا بإسلوب لا يمت لقواعد اللياقة بصلة.

فكر في الذهاب لأي فرع من الفروع الأخرى لدور الأمل، ولكنه كان على يقين أن السر يكمن بتفاصيله في المقر الرئيسي المجاور لسكنه.

لامته كثيرا يارا ناصر على ما بدر منه تجاه خالد عامر، هي تؤمن أن دور أيتام الأمل هي أفضل الدور بمصر قاطبة ولا يليق بحسن زيدان ألا يرد إحسانهم للأطفال بغير إحسان، لم يستطع حسن زيدان أن يخبرها بشكوكه إذ لم تصل لحد الاتهام واضح الأدلة.

جائته فكرة أن يستعين بعلاء نبيل صديقه وزميله بالمكتب، لن يتأخر عن مساعدته في أي شيء متى احتاجه رغم قدح القهوة الذي سكبه حسن زيدان على ملابسه بغير قصد في صباح ذلك اليوم، ببذل القليل من المجهود ووجبة غداء في أي مطعم يقدم المأكولات البحرية الغنية بالفسفور سوف يقنعه بأن يتخلى عن بنته الصغيرة ليخدعوا بها خالد عامر ويدخلونها عينا لهم بدار الأيتام.

لم تكن المشكلة تكمن في اقتناع علاء نبيل، ولا كانت تكمن في عدم ضمان دخولها هذا الفرع الرئيسي تحديدا، المشكلة كانت تكمن في زوجته، لن تقتنع زوجته صاحبة الأمر والنهي في بيتهما بالأمر، قليلات هن الزوجات اللاتي يقبلن بالتضحية ببناتهن لخدمة للوطن.

قطع تفكيره اتصال أحدهم على هاتفه المحمول، كان رقما مميزا يدل بوضوح على أهمية صاحبه.

- أستاذ حسن، معاك دكتور رياض عامر، منتظرك النهاردة الساعة ٩ بالليل إن شاء الله علشان عايز استفسر منك عن حاجات في الأوراق بتاعتك.. هستناك ..

ظل حسن زيدان لدقائق يحملق في شاشة هاتفه المحمول مفكرا في نوايا رياض عامر من إجراء هذه المكالمة، في اليوم الماضي أخبره جمال أبو هاشم بأمر هذا الاتصال متنبئا بمستقبل لم يكن قد حدث وبخل عليه بذكر دوافعه للتنبأ بهذا، اتصل بجمال أبو هاشم ليخبره بالأمر ولكنه تراجع منهيا الاتصال قبل أن يسمع الرنين على الطرف الآخر، قرر أن يذهب لرياض عامر بمفرده دون توصية أو وصاية من جمال أبو هاشم.

***

انتظر حسن زيدان لأكثر من نصف الساعة على غير العادة لكي يدخل لمقابلة رياض عامر هذه المرة، أخبره عماد أن رياض عامر يجري مكالمة هاتفية هامة بالداخل وسوف يقابله فور انتهائها بناء على تعليماته، جاء اتصال لعماد الجالس في الخارج فنهض مشيرا لحسن زيدان أن يتفضل معه.

- اتفضل يا أستاذ حسن استريح.

قالها رياض عامر مشيرا لحسن زيدان بالجلوس دون أن ينهض لمصافحته، كان منشغلا بمشاهدة شيئا ما على حاسوبه الشخصي المحمول، استغل حسن زيدان الفرصة وانزلق عبر نفقه المظلم وصولا لغرفته المظلمة محاولا معرفة فحوى المكالمة التي دارت قبل دخوله المكتب، كان هناك الكثير من "آه، تمام، ماشي، وبعدين" تعقيبا من رياض عامر على ما يقوله محدثه، لم يتحدث رياض عامر بجملة مفيدة تدل على فحوى المكالمة، الشيء الذي طمئن حسن زيدان أن تأخره في الدخول كان بسبب مكالمة هاتفية بالفعل لا لإهمال له أو تقليل من شأنه، أنهي رياض عامر ما كان يطالعه وطلب من العجوز عبد الصمد الجالس في ركن الغرفة كتمثال حجري يتنفس أن يحضر لهما واجب ضيافة، تنحنح حسن زيدان قائلا:

- خير يا دكتور رياض؟! .. حضرتك كان ليك استفسار بخصوص الورق؟

تبسم رياض عامر قائلا:

– ورق ايه بس يا حسن اللي هنتكلم فيه، أنت الـCV بتاعك بسم الله ما شاء الله يشغلك في وول ستريت من غير وسايط.

تبسم حسن زيدان في إحراج بالغ من هذه المجاملة التي بالطبع لم يكن يستحقها، بل لم يكن يعرف ما هي الشركة المسماة (وول ستريت) من الأساس ولكن الاسم بدا فخما، ما لبثت هذه الابتسامة أن تلاشت عندما أدار رياض عامر شاشة حاسوبه المحمول تجاهه قائلا في جدية:

– أنا بس كان جالي فلاشة كده كنت حابب أفهم اللي عليها ده إيه ؟!

تسلل التوتر لنفس حسن زيدان ورياض عامر يضغط لتشغيل ملف (فيديو)، سرعان ما تحول توتره لخوف وهو يرى نفسه ويارا ناصر داخل دار الأيتام وقد تم تصويرهما بواسطة كاميرات المراقبة بالدار التي لم يلتفت لها حسن زيدان على الإطلاق!

– حضرتك بتوريني الفيديو ليه يا دكتور رياض .. أنا عارف إننا كنا في الدار، دي تاني مرة نزور الأطفال الأيتام هناك بالمناسبة.

تحدث حسن زيدان متلعثما وقد نجح إلى حد ما في السيطرة على صرامة ملامحه وإن فشل في السيطرة على تلعثم لسانه والعرق المتفصد من ثنايا جلده خوفا ليتكاثف بشكل واضح على جبهته، نهض رياض عامر من مقعده الوثير خلف المكتب دون أن يوقف (الفيديو) وجلس في المقعد المقابل لحسن زيدان والأخير يتابعه بعينين لا تحيدان عنه قيد أنملة.

– أنا بديت من الصفر يا حسن .. أو من تحت الصفر بشويات، عارف الجيل اللي كان بيذاكر على لمبة جاز وينام فوق الفرن البلدي في الشتا علشان شوية دفى؟! .. أنا يا سيدي من الجيل ده، نحت في الصخر لحد ما بقيت الدكتور رياض عامر رجل الأعمال وعضو مجلس النواب اللي قاعد قدامك ده.

التقط رياض عامر ملفا أخضر اللون يحتوي على بضعة أوراق من فوق المكتب جواره ووضعه برفق على المنضدة الصغيرة التي تفصله عن حسن زيدان، أشار للملف قائلا:

– بص يا حسن في الملف ده كده.

لم يعقب حسن زيدان والتقط الملف متصفحا الأوراق الموضوعة بين غلافيه، كانت جميعها صورا ضوئية من بعض الصحف الخاصة والمواقع الإخبارية الإلكترونية تتحدث عن آداء النائب رياض عامر تحت قبة البرلمان، أعاد حسن زيدان الملف إلى موضعه بعد انتهائه من مطالعته السريعة قائلا:

– مش فاهم حضرتك تقصد إيه يا دكتور رياض؟!

أجابه رياض عامر وقد اعتلت ملامحه الضيق:

– أنا لما وصلت المجلس ما كنتش حابب استغل المكان ده إلا لمصلحة البلد ومصلحة الناس الغلابة، الثورة خلت الواحد عنده أمل إن المجلس ممكن يبقى فيه ناس تخدم بجد مش تستغل المكان ده ونفوذه لمصلحتهم

الشخصية زي ما كان بيحصل قبل الثروة، ناس كتير كلمتني أخش الدورة دي وأنا وافقت، مش عارف عندك معلومة ولا لأ بإني شريك في مستشفى الأمل بنسبة كبيرة جدا .. تعتبر بتاعتي .. ودي أكبر مستشفيات البلد، مش بس كده، الحمد لله كرجل أعمال مشارك في بيزنس كبير ومتنوع وعضو مجلس إدارة في شركات كبيرة، يعني من الآخر مش محتاج المنصب ده في حاجة، بس قلت اخدم البلد وأهالينا الغلابة بما يرضي الله، والساكت عن الحق شيطان إيه؟

– شيطان أخرس.

– بالظبط كده، وأنا مش هرضى لنفسي أبقى في يوم شيطان ولا أبقى أخرس .. بس ده ما بيعجبش حبايبنا اللي فوق.

دقيقة من الصمت تلت كلمات رياض عامر لم يتحدث خلالها كلاهما، حتى استطرد رياض عامر قائلا:

– أنا عارف إنك مش قريب جمال أبو هاشم، وسمعت كلام كده إنك بتشتغل معاه من قبل ما يتنقل مكانه الجديد، ناس بيقولوا إنك مسخر جن، ما أعرفش الجن ده يقدر يثبتلك صدقي ولا لأ، أنا الحمد لله صفحتي بيضا وهتفضل بيضا بإذن الله وتوفيقه، مهما إخوانا حاولوا يدوروا ورايا علشان يمسكوا حاجة عليَّ علشان يضروني بيها بعد ما حاولوا كتير يخرسوني وما نفعش معايا تهديداتهم.

– يعني أنت ما بتاجرش في البنات مع الخلايجة ؟!

بدت الصدمة جلية على وجه رياض عامر من اتهام حسن زيدان الذي قذفه في وجهه متسرعا دون تفكير.

– أنت قصدك زواج قاصرات .. هما عايزين يقولوا عليَّ قواد ؟!

جائته الإجابة في صورة تحدٍ أطل من عيني حسن زيدان فانفجر رياض عامر في الضحك وقد فقد القدرة على السيطرة على وقاره، استاء حسن زيدان من سخريته منه فسأله دون أن يتخل عن تلعثمه:

– حضرتك بتضحك على إيه يا دكتور؟!

– هما بجد عايزين يلبسوني تهمة عبيطة زي دي؟!!؟!؟!؟ .. هي صحيح توجع فعلا، بس هل ممكن دكتور محترم يعمل حاجة بالدناوة دي !

– أي حد ممكن يعمل أي حاجة علشان الفلوس !

– لا لا يا حسن، مش أي حد .. أنا فلاح قراري، بفضل الله ربنا كرمني من وسع فوق ما تتخيل، وربنا وفقني في الصرف من مال الله على مؤسسة الأمل الخيرية، بنصرف على أرامل وبنجهز يتامى، بنسدد ديون غارمات وبنتكفل بعلاج مرضى..

صمت برهة ثم انفجر ضاحكا متخليا عن صرامته مستطردا:

– وبنتبرع لصندوق تحيا مصر والله العظيم يا ابنى، نشاط بقى من أنشطة الجمعية الكتيرة هي رعاية الأيتام من خلال فروع الدار في المحافظات كلها بدون تفريق وبنظام صارم يحترم خصوصية الأطفال دي وبيرسم مستقبلهم لما يكبروا، مش مشكلة يعملوا معايا أي حاجة، بس ما يقفلوش أبواب الخير

المفتوحة دي لأرامل ومرضى وأيتام ولعيال صغيرة هتصحى تلاقي نفسها في الشارع أو تحت إيد شوية موظفين يسرقوا مال النبي.

– وإيه حكاية سعاد حسني؟!

– أنا ما بحفظش أسامي الصراحة، بس أكيد دي البنت اللي أنت سألت عليها خالد أخويا؟! .. وهي نفس البنت اللي سألوا عليها موظفين الشئون الاجتماعية، واحدة وهربت من الدار وما عرفناش نوصلها تاني لحد دلوقتي للأسف.

– أمال كنتم بتجهزوها لإيه؟!

سأله حسن زيدان في تخابث واضح فقطب رياض عامر حاجبيه في عدم فهم للسؤال ثم بدا كأنه قد تذكر أمرا ما فأجابه في براءة:

– بنجهزها لإيه مش فاهم، البنت دي كانت كبيرة وكان المفروض خالد أخويا يقعد معاها زي غيرها يفهمها طبيعة شغل النضافة في المستشفى علشان لو رضيت بنشغلها نضافة في المستشفى لأنها ما مشيتش في التعليم كويس، بتشتغل وبتسكن في شقة منفصلة، تبدأ تستقل بحياتها عن الدار ويبقى ليها حياة خاصة بيها.

– بس في المرة اللي قابلتها فيها كانت قالت إنها مبسوطة بتواجدها في الدار مع الأطفال وسط المكان اللي اتربت فيه.

– وده حقيقي فعلا، لحد ما حصل تجاوز لا أخلاقي مش حابب اتكلم عنه، بس الخلاصة ما ينفعش يتسكت عنه وإلا هبقى بقرون يا حسن .. لما

اتواجهت بيه هربت تاني يوم وما عرفناش ليها طريق .. وبالمناسبة عملنا محضر في القسم في نفس يوم هروبها.

– والله يا دكتور رياض..

– بص يا حسن.. أنا ماليش في اللف والدوران، لما أخويا بيقولي فيه واحد جه مع زميلة ليه أو خطيبته والراجل ده عمل مشكلة واتكلم بأسلوب مش كويس، قلتله يبعتلي صورتك من كاميرات المراقبة اللي موجودة في كل حتة في الدار دي وفي بقية الفروع واللي محطوطه رغم تكلفتها العالية لضمان سلامة الأطفال، لما لقيت أن الشخص ده أنت، وبعديها تاي يوم يجيلي تفتيش على غير العادة قولت أكلمك وافهم منك بدل ما تتعب نفسك، وقول لجمال بيه لو فيه حاجة عايز يسألني عليها يجيلي دوغري ومش هقوله حصانة ولا يحزنون.

نظر له حسن زيدان في أسف غير قادر على التفوه بحرف واحد، ألجمته صراحة رياض عامر.

– تقدر تتفضل يا حسن .. شرفتني ..

قالها رياض عامر ناهضا ومادا يده لمصافحة حسن زيدان معلنا انتهاء المقابلة فصافحه الأخير وانصرف وشحمتا أذنيه قد اصطبغتا باللون الأحمر من فرط الإحراج وهو يدعو الله أن تنشق الأرض وتبتلعه في تلك اللحظات.

***

ما إن دخل حسن زيدان شقته حتى سمع رنين هاتفه المحمول يعلن عن اتصال من جمال أبو هاشم، سبه في سره ثم أجاب اتصاله في تأدب.

- إيه يا عم حسن!، عملت إيه مع رياض؟

تلفت حسن زيدان حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بالشقة يتجسس عليه.

- أنا قولت لما رياض اتصل بيك الصبح هتكلمني وما حصلش! .. لما أنت رحت ليه قولت لنفسي أكيد لما يخرج من عنده هيكلمك يا جمال وما حصلش! .. قولت اتصل بيك بقى اطمن عليك بدل رجعت شقتك بالسلامة.

لم يعد يندهش حسن زيدان من قدرة جمال أبو هاشم على تتبع تحركاته وبخاصة مع منصبه الجديد، بل لن يتفاجأ إن عَلِمَ أن باستطاعته توجيه قمر صناعي للتجسس عليه في شقته.

- أنا قولت أكلمك الصبح علشان ما أزعجكش متأخر كده يا جمال بيه.

- يا راااااااااااجل!

قالها ساخرا جمال أبو هاشم ثم استطرد في صرامة:

- كان عايزك ليه؟!

تمدد حسن زيدان على الأريكة بالصالة ليحكي لجمال أبو هاشم ما حدث منذ أن تلقى اتصالا من رياض عامر وحتى ذهابه إليه، وما دار بينهما في جلستهما المنفردة دون أن يُخفِي عنه شيئا.

– الكلب يعني فاكرنا مستقصدينه علشان كام كلمة فارغة تحت القبة!

قالها جمال أبو هاشم مستهزئا برياض عامر فعقب حسن زيدان على ما قاله:

– والله يا جمال بيه أنا فشلت إني أوصل لحاجة، الراجل ده أكيد مش سهل وتعبني معاه.

– ولا صدقت كلامه؟!

سأله جمال أبو هاشم في تخابث، فأجابه حسن زيدان دون تفكير:

– جمال بيه .. مفيش حد صالح في البلد دي وأنا أولهم .. من أكبر راس لأصغر راس .. هو بس فيه واحد شاطر إنه يبان كويس وواحد تاني فساده ريحته صعب تتدارى.

ساد الصمت بينهما وقد استاء جمال أبو هاشم من صراحة حسن زيدان، صمت سمح لحسن زيدان أن يتذكر شيئا ما، فسأل جمال أبو هاشم:

– هو أنت كنت قلت إنه هيتصل بيا تاني صحيح يا جمال بيه، عرفت منين؟!

– علشان أكيد كاميرات المراقبة دي مش متعلقة زينة في الدار، وبعدين احنا بعتناله لجنة من الشئون الاجتماعية تفتش على الدار.

قالها جمال أبو هاشم في بساطة ساخرا من غباء حسن زيدان.

– يعني حضرتك كنت عارف إن فيه كاميرات في الدار يا جمال بيه؟؟!

– هو أنا بتاع كشري يا حسن؟!

– وما نبهتنيش ليه يا جمال بيه وخلتني أورط يارا في الموضوع؟

– قول بقى إنك خايف على حبيبة القلب!

– كنت نبهني يا فندم.

استشاط جمال أبو هاشم غضبا من الحدة التي كانت واضحة في صوت حسن زيدان فعنفه قائلا:

– أنبهك يا حيوان علشان تروح وأنت مش على بعضك وما تعرفش تركز في حاجة؟! .. كان لازم السنيورة تبقى معاك علشان محدش يشك فيكم، وفي الآخر برضوا طلعت حيوان وما عرفتش تطلع بحاجة، لأ ولك عين تتكلم بدل ما تتلهي على خيبتك وقاعد تدور في حاجات تافهة مش هتقدم ولا هتأخر، خش نام يا حسن علشان شغلك بكرة ومش عايزك تدوش أهلي طول الليل بمكالماتك أنت والهانم علشان الناس بيشتكوا من صداعكم.

قطع جمال أبو هاشم الاتصال مغلقا المكالمة في وجه حسن زيدان في إهانة متعمدة، تأكد حسن زيدان أنهم لا زالوا يتصنتون على كل مكالماته الهاتفية لا شك، جملة جمال أبو هاشم الأخيرة ليس بها أي تورية وليس المقصود بها إزعاج الجيران وإنما إزعاج الذين يتصنتون على مكالماته، أصبح حسن زيدان يضيق ذرعا بمعاملة جمال أبو هاشم معه قولا وفعلا!

جلسته مع رياض عامر خرج منها مؤمنا كل الإيمان أنهم بالفعل يتربصون بهذا الرجل الذي يبدو شريفا ويحاولون تصيد الأخطاء له لمحاولاته التمسك بالشرف تحت قبة البرلمان، يشعرون بالسخط لوجود فم يأبى التكميم، يريدون أن يتحول الجميع لعرائس ماريونيت مثله يتحكمون بخيوطهم في تحركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، لا يؤيدون إلا بأمر منهم ولا يعارضون إلا بإذنهم، لا بد بالطبع من بعض المعارضة الهزلية، لن تخرج المسرحية بشكل لائق إن أيدهم الجميع وغاب من يتطوع أو يجبر على القيام بدور المعارضة، ستصبح مسرحية هزلية لا ترضي الجماهير العريضة من الشعب الذين يتوهمون بأن هناك تغييرا حدث بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، دور وحيد لا يُسمَح فيه بالخروج عن النص هو دور المعارض، من يرتجل أو يحاول التجويد يطرد من فوق خشبة المسرح بلا رجعى، أما في دور المؤيد فمسموح بكافة أنواع التجويد والإرتجال.

يرى حسن زيدان أن رياض عامر – باعتباره ممثلا مستجدا – لا يعرف بعد بقواعد الوقوف على خشبة مسرحهم، سيصبح حينها المُبصِر في مدينة العميان غير المرحب به، النقطة البيضاء في ثوب أسود بالكامل تُعَد قبحا يجب التخلص منه، ذلك ما يحاولون فعله معه بالفعل مستغلين سذاجة حسن زيدان، شعر بالندم يقتله على شكوكه في رياض عامر فقرر أن يغلق هذا الملف بلا رجعى!

***

(١٦)

بعد ثلاثة شهور من لقاء حسن زيدان الأخير برياض عامر:

مرت ثلاثة شهور على آخر مكالمة كانت بين حسن زيدان وجمال أبو هاشم، لم يتصل الأخير ولو مرة واحدة بحسن زيدان وكأنه قد نسي أمره تماما، كان ذلك مصدر سعادة لا نهائية لحسن زيدان وقد آلمه استغلال جمال أبو هاشم له في المرة الأخيرة بشكل غير مشروع لتكميم فم رياض عامر تحت قبة البرلمان، تحقق لحسن زيدان ما أراد وتحرر من أسر جمال أبو هاشم للمرة الأولى بعدما أدرك الأخير أنه بلا نفع!

تمدد حسن زيدان على فراشه يستجدي النوم بعد انتهاء مكالمته الهاتفية الليلية مع يارا ناصر، ظل يتصفح حسابه على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" بلا تركيز ليستقبل رسالة على تطبيق الرسائل "واتساب" من المجموعة الخاصة بزملاء العمل.

"يا نبيل فرصة تبدل راسك القرعة دي براس كلب"

كانت تلك الدعابة السخيفة التي تُخفِي خلفها الإهانة من أحد الزملاء مصحوبة برابط لخبر من أحد المواقع الإخبارية المشهورة، ضغط حسن زيدان على الرابط لينتقل للموقع الإلكتروني ليقرأ خبرا يتحدث عن أول عملية لزراعة رأس بشري سيجريها جراح إيطالي الجنسية تطل من عينيه نظرات الجنون اسمه سيرجيو كانافيرو، قرأ حسن زيدان تفاصيل الخبر في عجالة ثم ضغط على الرابط أسفل الخبر لينقله إلى مصدر الخبر الرئيسي بالموقع الإلكتروني لشبكة CNN، تصفح الخبر بانجليزية رديئة محاولا فقط التقاط أي كلمات يعرفها تؤكد صحة الخبر وأنه ليس من بنات أفكار صحفيينا الذين يبرع بعضهم في تأليف أخبار كاملة من نسج خيالهم لمجرد زيادة نسبة الزيارات للموقع الإلكتروني الخاص بهم، سب حسن زيدان العلم الذي يدفع العالم لهاوية الجنون، يرفض محاولاتهم العبث بخلق الله مهما كانت دوافعهم، وضع هاتفه المحمول في الشاحن بعدما ضبط دستة من المنبهات علها تفلح في إيقاظه وأسبل جفنيه لينزلق في نوم أتاه سريعا على غير العادة!

***

استيقظ حسن زيدان فزعا وسط بركة من المياه مع آذان الفجر الذي تردده المآذن بالخارج، كان جسده بأكلمه يتصبب عرقا بفعل الكابوس الذي راوده ولم تكن تنقصه الواقعية، لم يكن الكابوس هو ما أفزعه بل ما توصل إليه مستعينا بهذا الكابوس اللعين!

الطبيب الإيطالي المجنون بنظارته المستديره زاره في كابوسه حاملا ساطورا قاصدا جز عنقه وحسن زيدان متسمرا في مكانه وكأن قدميه مثبتتان بأسياخ فولاذية في الأرض لا يستطيع الفرار، كان أحد ما خلفه يقرأ بإنجليزية رديئة الخبر الذي قرآه قبل نومه على موقع CNN الإخباري وعلى الحائط أمام عينيه تومض كلمات وتختفى بضوء فسفوري، كلمات كانت من الخبر ولكن كلمة واحدة ظلت تظهر وتختفي لتظهر في كل مرة جديدة بحجم أكبر !

نهض حسن زيدان من فراشه وتعثر في الأغطية ليسقط على الأرض بعنف، نهض باحثا كالمجنون عن نظارته وأمسك بهاتفه المحمول ليبحث عن معنى تلك الكلمة التي يرجو الله ألا يكون معناها كما توقعه، استخدم موقع الترجمة الخاص بمحرك البحث جوجل لتصدمه النتائج!

= TRANSPLANT

"زرع أعضاء – طعم – شتل – إزدرع تعويضيا – نقل غرسة ويستلها من جديد – مزدرع" !

زرع أعضاء كانت هي الترجمة الأولى !

زرع أعضاء هي الترجمة التي كان يخشاها !

لم يكن لفزعه علاقه بالجراح الإيطالي سيرجيو كانافيرو على الإطلاق وعمليته المجنونة وكابوسه اللعين!

كان فزعه لأنه أدرك أنه قد تم استغفاله!

لم يكن فقط بسبب طيبته ولكن أيضا بسبب جهله !

في تلك اللحظات كان حسن زيدان يربط الأمور ببعضها ..

لم يكن رياض عامر يتاجر في نبات الحشيش كما توقع حسن زيدان بسبب الكلمة التي سمعها لجهله على أنها "نبات" .. كانت TRANSPLANT ولم تكن PLANT !!

بدأ يربط المعطيات ببعضها ليتوصل إلى النتيجة النهائية الصادمة!

لم يكن تجهيز سعاد حسني للعمل بالمستشفى كما خدعه رياض عامر، لقد اختفت حيث كان لا بد من اختفائها كغيرها بعد فقدها القدر الكافي من الأجهزة الحيوية التي تمكنها من البقاء على قيد الحياة!

لم تكن دور الأيتام لرعاية الأطفال الأيتام والمشردين، تلك الدور ما هي إلا مزرعة يعلفون بها الأطفال إلى أن يجيء دورهم سواء كان باكرا في مرحلة الطفولة أو متأخرا في مرحلة الشباب!

لم تكن ثروة رياض عامر الهائلة من تجارته المعلنة!

لم تكن من الإتجار في الفتيات القاصرات مع الأثرياء العرب، هي لن تجدي لهذه الدرجة كما أشار جمال أبو هاشم!

لم تكن لتجارته في المخدرات، ويا ليتها كانت!

كانت ثروته الهائلة من تجارة الأعضاء البشرية!

تلك التجارة التي لا يمكنه إدراجها في إقراراته الضريبة ولا إقرارات الذمة المالية!

***

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل حينما تلقى جمال أبو هاشم مكالمة من حسن زيدان، لم تكن قد مضت ساعة منذ خلوده إلى النوم بعد يوم وليلة بلغ الإرهاق منه مبلغه، نظر إلى شاشة هاتفه المحمول فرأى اسم حسن زيدان يتسلل إلى حدقتي عينيه من بين جفنين ثقيلين بالكاد يرفعهما، تقلبت زوجته في الجانب القصي من الفراش في اعتراض حركي صامت على رنين هاتفه، سب جمال أبو هاشم زوجته وسب حسن زيدان وسب هاتفه ثم جعل الأخير على الوضع الصامت ليستكمل دون إزعاج نومه.

***

– متصل ليه بيا يا بني آدم وش الفجر؟!

قالها غاضبا جمال أبو هاشم متحدثا في هاتفه المحمول أثناء قيادته لسيارته، كان حسن زيدان على الطرف الآخر يكاد ينفجر من فرط الغيظ على أثر تجاهل جمال أبو هاشم له، ماذا إن كان لديه معلومات عن أي فعل إجرامي يضر بالأمن القومي للبلاد!، هل سينتظر الخطب الجلل استيقاظ جمال أبو هاشم، هل يذهب للإرهابيين طالبا منهم التمهل لسويعات قلائل حتى استيقاظ جمال أبو هاشم، الرجل المهم يغط في نومه ويتعالى صوت شخيرة طاغيا على صوت رنات الهاتف!

– عايز أقابلك ضروري يا جمال بيه بخصوص رياض عامر.

– وما بعتش ليه يا حيوان رسالة لما الموضوع مهم؟!

قالها بكل غضبه جمال أبو هاشم فلم يتلق ردا من حسن زيدان، كان الأخير قد آلمته الإهانة بوصفه بالحيوان، لم يسمع هذا السباب منذ فترة طالت تعافت فيها كرامته والتأمت جراحها، قرر أن يجبر كرامته أن تتغاضى كعادتها سابقا عن تلك الإهانة من أجل الإيقاع برياض عامر اللعين، لا ضير من المزيد من التنازلات من أجل إعمال العدالة والقصاص العادل، انتزعه من صمته صياح جمال أبو هاشم عبر الهاتف:

– ما بتردش ليه، بكلم أمي أنا ؟!

– يا فندم يعني حضرتك ما سمعتش الرنة هتسمع صوت الرسالة؟!

– استغفر الله العظيم ع الصبح، قابلني يا بني آدم في القهوة اللي قعدنا عليها آخر مرة.

أغلق جمال أبو هاشم هاتفه وأدار مقود السيارة ليسير في الإتجاه المعاكس دون احترام لقوانين المرور التي من المفترض عليه متابعة تنفيذها قائدا سيارته نحو المقهى المتفق عليه، صرير إطارات سيارته أفزع النائمون في الدول المجاورة وأحدث أثارا على الأسفلت سيلعنه بسببها موظفوا الحي، ولكنه لا يبالي إلا بالإسراع إلى حسن زيدان.

***

عندما وصل المقهى كان حسن زيدان بانتظاره بالفعل، لاحظ جمال أبو هاشم زيادة وزن حسن زيدان دليلا على الصحة والسعادة واستقرار حالته النفسية خلال الشهور الماضية.

– ما له رياض زفت ؟!

سأله جمال أبو هاشم في نفاد صبر بعدما سحب مقعدا وجلس أمامه دون مصافحة أو ابتداء بسلام أو سؤال عن أحواله.

– هقولك يا جمال بيه..

لم يلق حسن زيدان بالا لهذه المعاملة الجافة وأخرج سيجارة من علبة سجائره وأشعلها رغبة منه في حرق أعصاب جمال أبو هاشم انتظارا لما سيقوله، نوع من إضاعة المزيد من الوقت بطريقة قانونية على الفيفا أن يدرجها بين لوائحه!، نفث دخان سيجارته وانطلق يشرح في حماس – دافعه الغضب – ما توصل إليه بشأن رياض عامر منذ شكوكه بشأن هاتف الآيفون الذي يحمله العجوز عبد الصمد وحتى ما توصل إليه بشأن تجارة الأعضاء البشرية.

كان جمال أبو هاشم يستمع باهتمام بالغ لكل ما يقوله حسن زيدان دون أن يعطي أي انطباع سواء بالرفض أو الموافقة لما يقوله، اهتمام بدا على ملامحه الصارمة وقد قطب جبينه وعقد حاجبيه في جدية واضحة أما عيناه فقد اختفتا وراء نظارته الشمسية لتخفي انطباعهما.

ساد الصمت بينهما لدقائق بعدما فرغ حسن زيدان من حديثه، لم يشأ حسن زيدان أن يقاطع تفكير جمال أبو هاشم فيبوء بغضبه، الأخير يزن الأمر برمته في عقله مدققا في مدى موضوعيته.

كان جمال أبو هاشم قد نصب بالفعل فخا لرياض عامر وكان يتسلى بمتابعة ترنحه بين شباك هذا الفخ، فخٌ تقليدي للغاية، فتاة على قدر بالغ من الجمال مع الكثير من المنحنيات الجسدية التي لا تصل لمرحلة البدانة، مثقولة العوارض تمشي الهوين كما يمشي الوجى الوحل، تلك المنحنيات التي يفتقدها رياض عامر في زوجته الفاتنة النحيفة كسيقان الملوخية، سقط رياض عامر بسذاجة لم يكن يتوقعها جمال أبو هاشم في هذا الفخ التقليدي، هي ورقة ضغط ترضي رؤسائه ولكنها ليست بالقوة الكافية، لن تلقي به في السجون، قد تفسد علاقة رياض عامر بزوجته على أقصى تقدير في حال رفض زوجته بأن يكون زوجها متعدد العلاقات النسائية ولا تتقبل بصدر رحب فكرة الخيانة، ولكن في المقابل لن تؤثر تلك الورقة على الإطلاق على موقف الناخبين منه في أي انتخابات قادمة، الشعب – أغلبه – يكن تقديرا بالغا لفحولة الرجل حتى وإن كان زانيا خائنا لزوجته!

لو صدق ما قاله حسن زيدان فهو إذا بصدد حكم بالإعدام مع إيقاف التنفيذ بناء على رغبتهم، لن يتطلب الأمر مجهودا بالغا، مراقبة لكل القاطنين في الدور التابعة لمؤسسته ولدخولهم وخروجهم وبخاصة البالغين منهم وصولا للمكان الذي تتم فيه تلك الجراحات ثم التوصل لعناصر تلك

الشبكة، رياض عامر ليس ساحرا ليفعل كل شيء بمفرده، استبعد منذ الوهلة الأولى جمال أبو هاشم أن يكون رياض عامر بالغباء الذي يدفعه لإجراء تلك الجراحات في مستشفى الأمل الخاصة التي يمتلكها أو في المستوصف الخيري كذلك، حسن زيدان قدم له تفسيرا منطقيا لمرافقة العجوز عبد الصمد لرياض عامر في كل مكان، ليس لديهم تأكيدات لمرافقة العجوز له في دورة المياة وقت تلبية نداء الطبيعة، ولكن هذا لا ينفي مرافقته له جل وقته، العجوز عبد الصمد ما هو إلا قبعة الساحر التي يخفي فيها الساحر أسراره بعيدا عن أعين المتطفلين!

– تحب أروحله الدار تاني أو مكتبه وأحاول أوصل لمعلومات أكتر، أو آخدلك لفة على بقية فروع الدار ؟!

سأله حسن زيدان عارضا خدماته كاسرا لحاجز الصمت بينهما، فنهض جمال أبو هاشم ملتقطا سلسلة مفاتيحه وسجائره رافضا الفكرة بنفس الصرامة قائلا دون كلمات شكر:

– لما احتاجك هكلمك، ابعد خالص عنه اليومين دول وما تتصرفش من دماغك .. كلامي واضح .. ما تتصرفش من دماغك يا حسن يا زيدان.

تركه وغادر المقهى والفضول ينهش بمخالبه في عقل حسن زيدان راغبا في معرفة خطوات جمال أبو هاشم القادمة.

***

(١٧)

مضى أكثر من شهر منذ اللقاء الأخير الذي جمع جمال أبو هاشم بحسن زيدان، لم يتلق الأخير أي مكالمة هاتفية من الأول، كلما مرت بضعة أيام ترتفع في دماء حسن زيدان هرمونات الشجاعة فيتصل بجمال أبو هاشم فيرفض الأخير استقبال المكالمة في حينها ولا يعاود الاتصال فيما بعد فيخشى حسن زيدان معاودة الاتصال به خوفا من أن تصفعه عبر الهاتف موجة غضب كاسحة من موجات غضب جمال أبو هاشم، يخشى أن تثقب طبلة أذنه.

بالطبع كان حسن زيدان يدرك جيدا أنه ليس له أي صفة للسؤال عن تطور التحقيقات بشأن تجارة رياض عامر في الأعضاء البشرية، يؤمن أن جمال أبو هاشم يستخدمه فقط ككلب اكتشاف المفرقعات أو المخدرات لا أكثر من ذلك، فلا يحق للكلب بعد اكتشاف الجريمة أن يسأل عن تطورات القضية، ولا يحق له أزعاج مدربه بنباحه، ولكن يعود حسن زيدان ليقنع نفسه أنه في خصومة شخصية مع رياض عامر، هو طرف في القضية، هو

واحد من أفراد الشعب المعرضين لسرقة أعضائهم واختطاف أبنائهم للإتجار بأعضائهم هم الآخرين، هو ضحية محتملة أو أب مستقبلي لضحية محتملة، يأتيه شيطانه ليخيره ما بين حرق طفليه في طفولتهما أو أن يعيشا معه ليكبرا حتى عمر معين فيُخطفا أو يذوقا مرارة اليتم فيتخطفهم الشارع ليسلمهم لرياض عامر وأمثاله فيختار حسن زيدان بلا فتكير أن يحرقهما بنفسه قبل أن يتما الرضاعة!

صدمته التقارير التي تتحدث عن حجم تجارة الأعضاء البشرية في مصر منذ اكتشافه أمر رياض عامر!

كان يظن أن الأمر يقتصر فقط على حالات معدودة يمكن إحصاؤها على أصابع اليدين والقدمين، صدمه تقرير صادر عن منظمة التحالف الدولي لمكافحة الإتجار بالأعضاء البشرية "كوفس"، التقرير يتحدث عن أن مصر تحتل المركز الثالث عالميا متخلفة في ذلك المجال الوضيع عن الهند والصين فقط!

اليوتيوب به (فيديو) لخبيرة مصرية الجنسية تعمل في مكافحة الإتجار بالبشر في الأمم المتحدة تتحدث عن أن مصر تحتل المرتبة الخامسة على مستوى العالم في الإتجار بالأعضاء البشرية، ذلك أخف وطأة من المركز الثالث، ثم جاء تقرير آخر صدر عن المجلة البريطانية لعلوم الإجرام ليصفعه ثانية ذاكرا أن مصر تعتبر من أكبر الأسواق في تجارة الأعضاء البشرية في العالم.

لم يصدق عينيه وهو يطالع دراسة أخرى صدرت عن منظمة الصحة العالمية "WHO" أن مصر تعد مركزا إقليميا للإتجار بالأعضاء البشرية، لتصنف مصر ضمن أعلى خمس دول على مستوى العالم في تصدير الأعضاء البشرية مع كل من الصين والفلبين وباكستان وكولومبيا، إذ تعتبر مصر الأولى على مستوى الشرق الأوسط!

يا له من إنجاز مليء بالخزي!

لم يبق إلا أن تصبح تلك التجارة الوضيعة معلنة ومرخص بها، ستكن حينها مصدرا رئيسيا ضخما من مصادر الدخل العام للبلاد وستنعش خزائن الدولة، الضرائب من ورائها وحدها كافية لإصلاح منظومتي التعليم والصحة!، وسط تخيلاته الكارثية تلك تخيل سيدات قرويات يفترشن السوق بـ(طشت) به الرئتين والكبد والمعدة والكلى البشرية مثلما يفعلن اليوم بأحشاء الماشية والأنعام.

بحث كثيرا عبر الإنترنت عن تجارة الأعضاء البشرية وعلم أن حالات نادرة للغاية التي يتم فيها نقل أعضاء من طفل لآخر، قرأ عن شبه استحالة نقل أعضاء بشرية من طفل لبالغ، ورياض عامر يرعى مزارعه الخاصة التي يكبر بها الأطفال حتى يصبحوا مؤهلين للذبح متى جاء المشتري الذي يدفع الثمن بالعملات الأجنبية، إنتاج مزارع رياض عامر بالطبع مخصص للتصدير فقط.

الوضع كارثي وصادم في مصر في هذا الشأن كما اكتشف حسن زيدان، رياض عامر إن لم يكن الأول فلن يكون الأخير، ذئاب بشرية هم قد استغلوا فقر السواد الأعظم من الشعب ليسلبوهم الحق في الحياة ليلقوا لأقارب الفقراء بحفنة لا تكاد تذكر من الأموال تمنحهم بضع ساعات من الحياة الكريمة قبل أن يبتلعهم الفقر ثانية، حفنة من الأموال كزورق مهترىء سرعان ما يغرق بهم في قاع الفقر بلا نجدة أو مغيث أو قوة تمنحهم مقاومة للغرق بين أمواج الغلاء، سرعان ما يموتون ليمنحوا فرصة أخرى للحياة يشتريها الأثرياء بأموالهم ليبتعدوا بضع خطوات عن شبح الموت.

لكن الوضع يختلف كثيرا مع رياض عامر اللعين إذ ينأى بنفسه بعيدا عن ابتزاز الضحايا وذويهم، هؤلاء الضحايا وذويهم الذين يسارعون بطلب المزيد من المال بعدما يكتشفون الخدعة وأن الفتات الذي تحصلوا عليه لا يعد ثمنا عادلا لأعضائهم التي تخلوا عنها بمحض إرادتهم وبموافقتهم منذ البداية – بل بعرض من بعضهم أحيانا – ليستفيد منها آخرون ممن يكنزون الذهب والفضة والمليارات من الدولارات.

أنشأ اللعين لنفسه حظائرا خاصة في أنحاء الجمهورية ولكنها تتكدس بالبشر فاقدي الأهلية بدلا من الماشية والبهائم، لا أحد يهتم بوجودهم أو يكترث بموتهم والمكسب العائد من ورائهم يصل لـ ١٠٠٪ باستثناء تكلفة إطعامهم وإعاشتهم والفحوصات الطبية اللازمة لأعدادهم ليومهم الموعود!

لعين هو رياض عامر، يسلب أطفالا وشبابا وفتيات الحق في الحياة دون علمهم أو إرادتهم أو منحهم ثمنا ولو بخسا يخدعهم به ظانين أنهم قد استوفوا حقوقهم!

جميعهم بضاعة لا بد لها من يوم تباع فيه، عمر المشتري ونتائج التحاليل الإيجابية هما العاملان الذان يخبأهما القدر ليحددا كم ستبقى تلك البضاعة حية على وجه هذه الأرض، إن كان المشتري طفلا ينفق أبواه ببذخ فلن تُركَن تلك البضاعة فترة طويلة على الأرفف، وإن كان مشتريها من البالغين فسوف يكون مقدرا لها أن تبقى حية مركونة على الأرفف لفترة كافية حتى تنضج أعضائها لتناسب مشتريها أو تجد مشتريا يرغب بها، يختفي الجسد وتختفي أحشائه فجأة من دور الرعاية والحجة الجاهزة (هروب من الدار أو نقل لدار أخرى من الدور التابعة للمؤسسة في الصعيد أو غيره).

كلما أثقله هم التفكير في كل ذلك يتصل ثانية بجمال أبو هاشم فيرفض الأخير استقبال المكالمة، لا يطيق حسن زيدان صبرا حتى يرى القانون يقتص من رياض عامر القصاص العادل، بل يرى أن الإعدام لن يكون أبدا قصاصا عادلا في حالته تلك!

لا بد أن يكون الجزاء من جنس العمل، يجب على القاضي أن يوازن كفتي ميزان العدالة ليحكم على رياض عامر وكل من عاونه بتجريدهم من أعضائهم الحيوية أحياء ليتم التبرع بها للفقراء وغير القادرين من أبناء

الشعب، لو باعتها الدولة للقادرين المقتدرين والأثرياء وأودعت العائد في صندوق "تحيا مصر" لما عارضهم أحد، الذي يهم الجميع فقط أن يتركوا أرواح الضحايا المحتملة تحيا، مع ضرورة القصاص العادل!

قرر حسن زيدان الاتصال بجمال أبو هاشم لمرة أخيرة، إن لم يجبه أيضا في تلك المرة سيذهب إلى مكتبه غير ضامن للخروج منه على قدميه بعد دخوله، صوت الرنين يحرق أعصابه وقبل أن يقطع الاتصال دون إجابة أتاه صوت جمال أبو هاشم الغاضب دائما على الجانب الآخر.

– هو أنت متخيل إن مفيش ورايا حد غيرك يا حيوان؟!

تلعثم حسن زيدان مرددا كلمات اعتذار فزجره جمال أبو هاشم صائحا:

– اخلص ما عنديش وقت للتهتهة يا حيوان، عايز إيه؟!

– يا جمال بيه أنا بطمن بس وصلتوا لحاجة بخصوص رياض عامر؟!

– لأ.. والموضوع ده اتقفل خلاص ومش عايز كلام منك أنت بالذات في الموضوع ده تاني، انسى القصة دي خالص، ما اشوفش رقمك بيتصل بيا، أنا لو احتجتك هكلمك.

انهالت كلمات جمال أبو هاشم الغاضبة كالصفعات على وجه حسن زيدان قبل أن ينهي المكالمة دون إعطاء حسن زيدان فرصة للرد أو التعقيب، إهانة متعمدة للأخير كما جرت العادة.

وقف حسن زيدان في شرفة شقته صامتا تتلاعب بعقله الظنون، يستبعد تماما أن يكون رياض عامر بريئا، الأمر قد يرجع لقوة النفوذ، وربما قد فشل جمال أبو هاشم في إثبات جرائمه رغم كل سلطاتهم وإمكانياتهم، وربما أثبت بالفعل جرائمه قبل أن يأتيه أمر من أعلى أن يتوقف كي لا يعطل عجلة الفساد الدائرة بهمة بالغة.

دائما وأبدا هناك من يحمي الفساد ويهيئ له التربة الصالحة ليكبر ويترعرع!

يؤمن حسن زيدان أن معظم قضايا الفساد الكبرى التي تطفو على السطح وتفوح روائح عفونتها نتيجة أن الجاني لم يعد يدفع بالقدر الكافي ليخرس الأفواه ويكف الأيدي عن إيذائه.

لو أن جمال أبو هاشم أفهمه التفاصيل التي أدت لإغلاق القضية لاستراح قلبه ولكن هذا الضابط الغضوب دائما أراد أن يتركه فريسة تحت أنياب ومخالب الفضول كي يقتله بالبطيء!

***

قبيل العصر كان حسن زيدان يقف على بعد بنايتين من مكتب رياض عامر، يقف وسط زحام المارة من أهالي المنقطة حاملا ملفا بلاستيكيا أسود اللون تبدو عليه الفخامة يغالب تردده في الدخول لمكتب رياض عامر

عزم على الدخول فتوكل على الله ومشى بخطوات بذل قصارى جهده كي تبدو ثابتة واثقة حتى توقف أمام عماد الجالس خلف مكتبه منشغلا بتصفح فيس بوك، تنحنح حسن زيدان فانتبه عماد لوجوده، نظر له مليا محاولا تذكر متى رآه من قبل حتى تذكره.

– أنا جاي من طرف الظابط جمال بيه أبو هاشم يا عماد لمقابلة سيادة النائب الدكتور رياض.

نهض عماد ليصافح محدثه في رهبة بثها اسم الضابط جمال أبو هاشم في نفسه.

– أهلا يا أستاذ، منورنا، حضرتك بعد إذنك هتستناه هنا علشان الدكتور مش ..

قاطعه حسن زيدان في صرامة مشيرا بيده قائلا:

– الدكتور مش موجود أنا عارف، الظابط جمال بيه كلمه قدامي ورياض بيه قال استناه جوه في المكتب.

– أنا آسف والله أنا ما ينفعش أدخل حد المكتب والدكتور مش موجود.

– اتصل بيه وهو هيقولك تدخلني.

الصرامة التي تحدث بها حسن زيدان دون تلعثم أجبرت الشاب أن يخرج هاتفه المحمول ويتصل برياض عامر ولكن الأخير لم يجبه.

– بيكنسل عليَّ والله، طيب حضرتك أقعد استريح هنا واشرب حاجة عقبـــ....

انحنى حسن زيدان وهمس بصوت خفيض بث الرهبة في نفس عماد قائلا:

– بص يا عماد .. أنا غلط أقولك الكلام ده .. بس أنا بناء على تعليمات من الظابط جمال بيه أبو هاشم وسيادة النائب الدكتور رياض عامر ما ينفعش حد يشوفني هنا إطلاقا، فاهمني؟! .. علشان كده سيادة النائب بنفسه قال استناه جوه في المكتب.

– آنا آسف والله دي تعليمات .. بس..

– عماد .. خلاص براحتك.

أشار حسن زيدان بيده في صرامة في وجه عماد آمرا أياه أن يتوقف عن التأسف وأخرج هاتفه المحمول من جيبه واتصل برقم ما.

– أيوة يا فندم، أيوه أنا وصلت المكتب لسيادة النائب خلاص بس عماد اللي بره مش راضي يدخلني، بيقول مش عارف يوصل لسيادة النائب يتأكد..

توقف حسن زيدان عن الحديث ومد يده معطيا الهاتف لعماد قائلا في صرامة:

– خد كلم جمال بيه يا عماد، بيقولك هو غلطان أنه ما قبضش عليك في قعدة الحشيش الأخيرة.

هربت الدماء من وجه عماد ليزداد شحوبه وهو يسمع صوت شخص ما يتحدث بغضب على الطرف الآخر، حاول السيطرة على مثانته كي لا تفرغ محتواها فزعا ونهض يتصبب عرقا معتذرا:

– مفيش داعي حضرتك والله، أنا آسف، تعالى اتفضل في المكتب وقولي بس تشرب إيه..

عاد حسن زيدان للتحدث في الهاتف قائلا بجدية:

– خلاص يا فندم، هستناه جوه لحد ما ييجي..

قالها حسن زيدان وأنهى الاتصال قبل أن تصل لأذني عماد هذا السباب المتواصل الذي يوجهه علاء نبيل لحسن زيدان عبر الهاتف!

***

بسعادة بالغة خطا حسن زيدان إلى غرفة مكتب رياض عامر، عندما خطا هوارد كارتر أولى خطواته داخل مقبرة توت عنخ آمون لم يكن يحمل نفس مقدار سعادة حسن زيدان في تلك اللحظات وإنما أقل بكثير!، سعادة حسن زيدان مصدرها نجاحه في دخول هذه الغرفة وسعادة أخرى لاكتشاف مدى قدرته الكبيرة على الارتجال.

لم يكن الملف الذي يحمله بين يديه يحوي شيئا ذا قيمة غير بضعة أوراق تخص العمل أخذها على عجالة من فوق مكتبه وهرع نحو مكتب رياض عامر.

سمع من زملائه أنباء مشاحنات في مجلس النواب بشأن إثبات تبعية جزيرتي تيران وصنافير لمصر أو إهدائهما للسعودية عن طيب خاطر، يعلم أن رياض عامر من القلائل تحت قبة البرلمان المؤيدين لمصرية الجزيرتين ولم يكن بالطبع ليفوت على نفسه هذه الجلسة الساخنة ليثبِّت أقدامه في موضع المعارض كحصن له يلجأ إليه إن حاولوا اتهامه بأي تهمة في يوم من الأيام، سيتعاطف الناس معه ويظنون أنه قد ظلم بتلفيق هذا الاتهام له وربما يخرجون في مظاهرات حاشدة مناصرة له للمطالبة بالإفراج عنه إن نجحوا في استخراج تصريح بالتظاهر!

حسن زيدان فقد شغف الاهتمام بالمتغيرات السياسية داخل مصر أو خارجها منذ سنوات ولكنه لم يكن يتخيل كبقية المصريين أن هناك ممن

يعتلون السلطة من يؤيد التخلي عن شبر واحد من الأرض المصرية حتى وإن كانت على سبيل الهدية لدولة عربية شقيقة، لا يتصور أن يمنح أب أحد أبنائه لأخيه على سبيل الهدية تقديرا لوقوفه إلى جواره في وقت شدة حتى وإن فاقت الشدة المستنصرية!، الأمر كان يستدعي توضيحات مقنعة من قبل الدولة بدلا من التجاهل التام، ذلك التجاهل الذي كان أشبه بازدراء للمواطنين!

رأى حسن زيدان أنها فرصة لن تعوض لدخول مكتب رياض عامر في غيابه وراهن بكل ما لديه من ثقة – حارقا أي فرصة قد تلوح في المستقبل – على أن عماد الشاب شأنه شأن أغلب الشباب في مثل عمره يهابون أي شيء يصطبغ بصفة أمنية، حسن زيدان رأى جيدا الرهبة التي ارتسمت على وجهه حين علم أن جمال أبو هاشم ضابط وليس شخصا عاديا من ابناء الدائرة في المرة الأولى ، وحالف حسن زيدان الحظ مرتين، الأولى حين لم يجب رياض عامر على الاتصالات التي استقبلها من عماد منشغلا بمشاجراته تحت قبة البرلمان والمرة الثانية حين أصاب عماد الذعر من غضب جمال أبو هاشم المزعوم وتهديده له فيما يخص تدخينه الحشيش إذ كادت خدعة حسن زيدان أن تنكشف إن أخذ عماد الهاتف ليجد علاء نبيل على الجانب الآخر يكيل السباب لحسن زيدان متعجبا من هذا الهراء الذي يلقيه في أذنيه عبر الهاتف!

في ثقة استراح حسن زيدان في جلسته على المقعد الوثير واضعا الملف على المنضدة الصغيرة أمامه واستجمع هدوءه وانزلق عبر نفقه المظلم وصولا

لغرفته المظلمة سابحا بين الموجات الصوتية متلصصا على ما قيل داخل غرفة مكتب رياض عامر باحثا عن أدلة إدانة تسلم رقبته لحبل المشنقة.

سمع المزيد من كلمة TRANSPLANT وحاول قدر استطاعته فهم أحاديث رياض عامر بالإنجليزية، كان منتشيا من فرط سعادته إلى أن صدمه حوارا متبادلا عن الإتجار بالأعضاء البشرية ولكن الحوار كان بالعربية في تلك المرة.

حوار كان أحد طرفيه رياض عامر.

حوار جعل قطرات العرق تتفصد من مسام حسن زيدان الجلدية وتنتصب له شعيراته ذعرا في مؤخرة عنقه.

حوار بعدما فرغ من الاستماع إليه اكتشف أن عليه مغادرة المكتب بأقصى سرعة.

حوار في معرفته تهديد مباشر لحياته.

فكرة الانتحار الشرعي طالما راودته، ولكن ذلك لم يكن التوقيت المناسب، عليه الفرار بما عرفه وليتقبل الانتحار الشرعي برضا تام ولكن بعد القصاص العادل من رياض عامر ومن الملاعين الذين يعاونوه.

***

(١٨)

ما إن خرج حسن زيدان مهرولا من مكتب رياض عامر وسط دهشة عماد الجالس بالخارج، وما إن ابتعد ببضعة شوارع منطلقا بسيارته وصولا إلى الشارع الذي يقطن به، أوقف السيارة وأخرج هاتفه المحمول وسارع بالاتصال بجمال أبو هاشم متلفتا حوله ليتأكد من عدم تتبعه.

مثلما اعتاد في الفترة الأخيرة؛ لم يجب جمال أبو هاشم اتصالاته الثلاث.

وقف بسيارته في وسط الشارع حائرا لا يدري ماذا يفعل كخطوة تالية، أدار محرك السيارة وعاد ثانية إلى عمله، كان الجميع يتعجبون من عودته مرة ثانية عندما قابلوه عند بوابة الشركة وقت انصرافهم، تهرب من الأسئلة التي أغرقه بها علاء نبيل بشأن حديثه المجنون بالهاتف منذ ساعتين، أما يارا ناصر فلم تشأ أن تطل عليه في تساؤلاتها وقد لاحظت أنه في عجالة من أمره، لام نفسه على عدم تأخره لعشرة دقائق أخرى حتى انصرافهم ليسترح من هذا التحقيق الذي يجريه معه كل على حدى!

على حاسوبه المكتبي جلس يكتب لأكثر من ساعتين حارقا علبة سجائر بأكملها وقد فتح نوافذ المكتب طاردا سحب الدخان للخارج كي لا تلتقطها حساسات الحريق..

- أستاذ حسن ؟!

انتفض في مكانه فزعا حسن زيدان من صوت إسماعيل أبو العزم مشرف الأمن الذي شم رائحة دخان سجائره من خارج المكتب المغلق أثناء مروره لتفقد المكاتب الإدارية بعد انصراف العاملين، علاقة تتسم بالكثير من الود هي ما تربط حسن زيدان وإسماعيل أبو العزم مشرف الأمن من كثرة تبادل السجائر بينهما في منطقة التدخين جوار بوابة الشركة التي كان كثيرا ما يدخن عندها حسن زيدان سجائره هربا من نظرات مديره اللائمة وتقريعه في غدوه ورواحه، لذا لم يخش وشاية إسماعيل أبو العزم به لتدخينه السجائر بالمكتب، وإن دفعه ضميره للوشاية به فلن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

- خضتني يا عم إسماعين.

- خف شوية يا ريس على الأقل علشان الريحة تلحق تختفي على بكرة، وأبقى رش شوية معطر وأنت ماشي، أنا بطمن بس.. كمل شغلك..

- طيب هات سجارتين علشان سجايري خلصت..

ودعه إسماعيل أبو العزم بابتسامة ود ولفافتي تبغ وتركه ليكمل حسن زيدان ما بدئه، استمر في مكانه لساعة أخرى يكتب بلا كلل أو ملل وما إن

كاد ينتهي حتى سمع رنين هاتفه المحمول، طالع الشاشة فوجد رقما بلا اسم مسجل على الهاتف، رقم غير مميز وهذا ما زاد من قلقه.

- أنت يا حيوان مين قالك تروح لرياض عامر؟!

لم يجد حسن زيدان صعوبة في معرفة من هو صاحب الصوت، كان جمال أبو هاشم وقد بلغ به الغضب منتهاه، فتلعثم حسن زيدان محاولا التوضيح:

- يا جمال بيه أنا قولت أشوف دليل..

- مش أنا قولتلك الموضوع اتقفل يا حيوان؟!

- أنا قولت بس محاولة أخيرة واتصلت بيك بعديها.

- بتتصل بيا بعد ما خربت مالطة، الراجل مقدم فيك بلاغ إنك اتهجمت على مكتبه وسرقت حاجات مهمة..

- والله ما سرقت حاجة..

- ووصلت لحاجة ولا زي كل مرة؟!

لم يجبه حسن زيدان إلا بالصمت ليعنفه جمال أبو هاشم قائلا:

- ما ترد يا حيوان..

- لأ يا جمال بيه.. للأسف زي كل مرة..

- أنت فين دلوقتي؟!

- في البيت..

كذب حسن زيدان ولم يشأ إخباره عن مكانه، لم يدر من أثر ذعره أن جمال أبو هاشم لا يحتاج لسؤال ليعرف مكانه الفعلي.

- تتنيل تخرج تستناني على القهوة اللي بنتقابل فيها.. هخلص شغلي على بالليل.. هكلمك أقولك تتحرك، تقابلني عند مدخل مدينة العبور على الساعة ١١ هخفيك في شقة تبعي هناك لحد ما أحاول أهدِّي الدنيا، ما تقفلش الزفت الموبايل..

قذفه جمال أبو هاشم بكلماته الغاضبة وأنهى المكالمة!

متعجلا استكمل حسن زيدان ما كان يكتبه وأضاف بضعة أسطر ثم طبع الأوراق ثم أضاف إليها أوراقا أخرى كانت بمكتبه ثم وزعهم على مظروفين ورقيين ليغلقهما جيدا ويخفيهما في أحد أدراج مكتبه قبل أن ينصرف من المكتب.

انتظر بالمقهى حتى اقترب موعده مع جمال أبو هاشم، ليبدأ التحرك بسيارته نحو الوجهة التي طالما انتظرها.

***

(١٩)

اختفى حسن زيدان من فوق سطح الأرض لفترة طالت كثيرا تلك المرة!

هل قُتِلَ؟!

هل اعتقل؟!

هل فر هاربا خارج البلاد؟!

هل مات ميتة طبيعية؟!

هل اختطفه قطاع الطرق؟!

هل أصيب بحادثة جديدة أفقدته ذاكرته أو أسرته غيبوبة طالت؟!

هل صعد إلى السماء في معجزة استثنائية وقد انتهى زمن المعجزات؟!

هل تبخر؟!

هل اختطفه الفضائيون وقد وجدوا فيه منبعا للاكتئاب جدير بالتحليل والدراسة؟!

الأكيد في الأمر أن اختفاءه طال، وبخاصة أن بعض من أقاربه أتوا لمقر الشركة للسؤال عنه بعد فترة من اختفاءه!

ولكن الشركة وعرفان منها بخدمات حسن زيدان لم تنتظر شهرين حتى تبت في أمره، خمسة عشر يوما مضت منذ اختفاءه كانت فترة كافية لتصدر الشركة قرارها بفصله من عمله وذلك لانقطاعه عن العمل مثلما تنص اللوائح.

في صباح اليوم الذي صدر فيه قرار فصله؛ دخل مدير الحسابات الأستاذ مغاوري فتح الباب مكتب المحاسبين بالشركة، تنحنح وصفق بيديه ليجذب انتباههم ثم تحدث بصوت حاول أن يغلفه بالكثير من التأثر ليخبرهم عبر مقدمة روتينية أن حسن زيدان كان بالفعل من أكفأ المحاسبين في فريقه، ولكنه لم يفوت تلك الفرصة ليلقي خطبة عصماء مزلزلة عن أهمية الالتزام في العمل والتي ترجح كفة الكفاءة، ضرب لهم مثلا بلاعب الزمالك الأشهر الذي امتلك الموهبة الأعظم في تاريخ كرة القدم المصرية ولكن بسبب عدم التزامه لم ينجح في تحقيق أي إنجاز يذكر، ثم انتقل للموضوع الرئيسي الذي أتى وكرشه من مكتبه من أجل الحديث عنه ليحدثهم أن عجلة العمل لا بد لها أن تستمر في الدوران، وأن اختفاء زميلهم لا يجب أن يؤثر سلبا على سير العمل، وذلك لا يعني أن ينسوا حسن زيدان وقد أكلوا سويا الكثير من العيش والملح وإنما وجب على مشاعرهم أن تبق في القلب حتى يعيده الله سالما إليهم ليشغل مكانه كما كان في العمل!

أخبرهم أن زميلا آخر سيلتحق للعمل معهم بعد الانتهاء من تجهيز مسوغات تعيينه، تمت الموافقة على تعيينه منذ يومين بالفعل، ثم طلب من علاء نبيل باعتباره الصديق المقرب لحسن زيدان أن يفرغ محتويات المكتب ويستلم الأوراق بنفسه ليقوم بعمله في الفترة القادمة وحتى استلام الزميل الجديد لعمله.

تركهم مغاوري فتح الباب فنهضت يارا ناصر حاملة معها ضيقها وأشارت لعلاء نبيل أن ينهض حاملا معه كئابته ليقوما بإفراغ المكتب والأولى تمني نفسها بالعثور على أي شيء شخصي يخص حسن زيدان لتحتفظ به إلى الأبد.

– الشركة بنت الكلب، الراجل مش عارفينله طريق جرة، ودول بيقابلوا ناس ويختاروا ويعينوا على طول! .. هي الناس دي مش بني آدمين والمفروض بيحسوا ؟!

همست بها غاضبة يارا ناصر لعلاء نبيل، لم يجبها واكتفى بهز رأسه في أسى مع التمتمة بسباب فاحش لم يصل لمسامعها.

شرعا في تصنيف الأوراق والملفات فوق المكتب وانتقلا للأدراج، توقف الأثنان فجأة عما يقوما به إذ طالعت عيناهما المظروفين المغلقين وقد كتب اسم كل منهما بعد جملة:

"يسلم ليد/ .."

وبالأسفل توقيع حسن زيدان!

***

(٢٠)

في مقهى بالقرب من بيته جلس علاء نبيل يقرأ الأوراق التي تركها له حسن زيدان في المظروف الذي يحمل اسمه، اختار أن يفض محتويات المظروف بعيدا عن شقته وزوجته وفضولها المستفز.

"أخويا الجدع علاء نبيل .."

مع قراءة أولى الكلمات في رسالة حسن زيدان انسابت الدموع من عيني علاء نبيل شوقا لصديقه بعدما فشل في السيطرة عليها وسط دهشة من رواد المقهى من البسطاء، ثم بدئت ابتسامته تتسع وسط دموعه كلما استمر في القراءة، كلمات حسن زيدان تخبره عن مشاعره الأخوية تجاهه وكيف يعده خير الأخ والصديق.

داعبه ناصحا بالكف عن مشاهدة الفيديوهات الإباحية التي يدمنها كي لا يكشف الله عنه ستره وتكتشف زوجته الأمر، فيبيت ليلته في القبر أو في الشارع إن قررت زوجته أن تسامحه!

ضحك علاء نبيل من مشاكسات حسن زيدان ثم ما لبث أن تذكر اختفاءه فعاوده الحزن ثانية، استمر في القراءة ليفاجأه طلب حسن زيدان في السطور التالية!

أعطاه حسن زيدان بريده الإلكتروني وكلمة السر للولوج إلى حسابه الشخصي على موقع التواصل الإجتماعي "فيسبوك" ثم طلب منه أن يلج إلى حسابه من أحد مكاتب الكمبيوتر وليس من شقته أو العمل ليقوم بتفعيل إحدى الصفحات التي أنشأها على الموقع ولكن كانت الصدمة حين أخبره أن هذه الصفحة غرضها التشهير بشيخ لوطي هو المتسبب الرئيسي في كل الأزمات التي حدثت له، أكد عليه أن هذا مطلب لا يمكنه رفضه وأنه متقبل تماما لكامل الوزر من هذا الأمر ويبرئه من أي ذنب. ثم طلب منه عمل إعلان ممول في ذات اللحظة للصفحة بقيمة ألفي جنيه بالكامل دفعة واحدة بعدما أعطاه طريقة عمل هذا الإعلان والتفضيلات التي يريدها، أخبره أن هذا هو القصاص العادل من هذا الرجل وهو ما سيثلج صدر حسن زيدان أينما كان.

لم يتردد علاء نبيل للحظة وإنما أخذته حماسة طفولية لينهض مسرعا لينفذ ما طلبه منه صديقه دون تفكير!

***

"يارا.. صاحبة الضحكة الطفولية العريضة والغمازتين الساحرتين..

عندما تقرئين هذه الأوراق بين يديك ربما أكون قد فارقت الحياة، لا يمهلني القدر فرصة أخيرة لأتحصل على بضع لحظات من السعادة إلى جوارك كزوجة تكون لي سندا مثلما كنتِ دوما خير السند .."

فشلت محاولات يارا ناصر في السيطرة على دموعها وأعصابها المنهكة لتكمل الأوراق كلها دفعة واحدة، كلما تماسكت وجعلت تمضي بين السطور تسقط مرة أخرى فريسة لانهيارها.

صفحات عدة بث خلالها حسن زيدان مشاعره ونجواه وما يجيش بصدره من مشاعر تجاهها، ندمت أنها لم تعرض عليه الزواج بنفسها وتلح عليه في ذلك.

انقبض قلبها وهي تقرأ كلماته شارحا حقيقة ما كان بينه وبين جمال أبو هاشم ورياض عامر مؤكدا صعوبة تصديقها لما يقوله بشأن مقدرته الغريبة.

ثم انطلق يشرح لها كيف اكتشف مقدرته الغريبة منذ الحادث واستغلال جمال أبو هاشم لتلك المقدرة بوشاية من شيخ قذر باح له حسن زيدان بسره بحسن نية، ثم كشف لها ما سمعه في اللحظات الأخيرة التي قضاها في مكتب رياض عامر.

"كانت صدمتي عنيفه حين سمعت الحوار الدائر حول تجارة الأعضاء البشرية، ليس لكون رياض عامر أحد طرفي الحوار، ولكن لأن جمال أبو هاشم الخنزير كان الطرف الآخر!

كان يكشف لرياض عامر جميع أدلة اتهامه بالإتجار بالأعضاء البشرية دون مواربة أو تلميح، واجهه بتفاصيل هامة عن الشبكة المتشعبة التي تعاونه ويترأسها، أسمعه عدة مكالمات بدا أنه قد نجح في تسجيلها من هاتف رياض عامر الموجود برفقة العجوز عبد الصمد دائما، تجارة الأعضاء البشرية ليست الجريمة الوحيدة التي يرتكبها رياض عامر، وإنما كانت المفتاح لغرفة الأسرار التي يخفى فيها كل جرائمه التي تقوده إلى حبل المشنقة، حينها سيكون الإعدام عقابا مخففا على جرائمه تلك، ساد الصمت بينهما للحظات طالت شعرت خلالها بأصوات عرق خوف يتساقط من جبهة رياض عامر بلا أي مبالغة وقد سقط بين شقي الرحى ليطحنه جمال أبو هاشم بين شقيها متى شاء!"

***

(٢١)

مكتب رياض عامر – قبل مقتل حسن زيدان:

تلعثم رياض عامر وشعر بغروره ينكمش ليتلاشى وهو يتضائل في مقعده محاصرا باتهامات جمال أبو هاشم.

– أنت جاي تقولي الكلام ده ليه يا جمال بيه.. أنا عضو مجلس شـ..

– من غير عضو وحصانة والكلام ده يا دكترة.. الفيللا بتاعتك اتصورت وكل اللي شغالين معاك في القصة دي عرفناهم زي ما قلتلك وهيعترفوا من أول قلم، ده غير تسجيلاتك دي، وغير البلاوي التانية اللي أنت طلعت متورط فيها، ده أنت طلعت داهية!

– طلباتك..

– المواضيع دي كلها لسه في إيدي محدش يعرف بيها.. آه مهم أقولك بلاش شغل العيال الصغيرة بتاع مش هتخرج من هنا على رجلك علشان أنت عارف إني لو عايز أخرج بجثتك قدام الكل هخرج.. ولو فكرت في يوم تضرني فالملف اللي هيوصلك لحبل المشنقة عندي في المكتب..

– مش خايف أكون بسجل ليك ؟!

– ما أنا جايلك على غفلة علشان كده وداخل المكتب ورجلي على رجلك لنفس السبب، هو أنا بتاع كشري يا رياض!

– طلباتك..

ناوله جمال أبو هاشم ورقة عليها رقم من ثمانية أرقام أخرجها من جيبه.

– مش شايف الرقم ده كبير ؟!

– دكترة.. أنت مش عايز تفهم ليه إنك مش في موضع تفاوض.. ده عرض.. المشنقة أو الرقم الصغير بالنسبالك ده.. Take it Or Leave it

– هفكـ..

– هتوافق دلوقتي.. هبعتلك عيل صغير بكرة المكتب معاه ورقة بالمكان اللي هتسيب فيه العربية اللي جواها الفلوس.. أبقى خلي عماد الحشاش اللي بره ده يدخله ليك على طول..

– وإيه اللي يضمن إنك مش هتبتزني تاني..

– تخيل مفيش أي حاجة تضمنلك للأسف! .. أنا مش جاي طالب قرض من بنك الإسكان والتعمير يا رياض، أنت ما عندكش خيار تاني غير إنك تثق فيا وتثق إني راجل قنوع ومش طماع ومش محتاج أوسخ نفسي كتير، فلازم المرة الأولى تبقى هي الأخيرة وتكون كافية إنها تأمن مستقبلي.

***

"كانت تلك يا ياراا هي اللحظة التي أدركت فيها أنني قد تم استغفالي!

ليس لدي ما يثبت تلك الاتهامات غير الإقرار المرفق بهذه الأوراق وعليه توقيعي وقد طالبت خلاله بمقارنة توقيعي بمثيله على أوراق الشركة، كل ما أطلبه منك هو إرساله لمكتب النائب العام داعيا الله أن يأخذ الأمر بجدية وإن لم يفلح ذلك فالفضاء الإلكتروني كفيل بفضحهم ولكن إياك أن يكتشفوا أمرك.

ملحوظة أخيرة يا يورو،

مرفق مع تلك الأوراق، عقد بيع وشراء للبناية التي امتلكها بالشرقية، وكذلك شيك بكل الأموال التي امتلكها في حسابي في البنك. كنت انتهيت من هذه الأوراق منذ فترة وكنت أنتظر فقط مفاجئتك في يوم مولدك بهذا الأمر كهدية بسيطة ولكن يبدو أن نهايتي اقتربت للغاية، جاء الوقت لتحققي حلم دار الأيتام الذي طالما حلمتِ به وكلي ثقة بأنك ستراعي الله فيهم، عليكِ إنهاء الإجراءات جميعها قبل أي تحرك قانوني، وقد تركت في ذات المظروف رسالة منفصلة لأبي ليتفهم الأمر كي لا يضايقك.

أحبك ولا أخجل الآن من قولها.

حسن زيدان"

***

لا أحد بإمكانه الجزم بما حدث لحسن زيدان!

الراوي لم يخبرني شيئا عن نهايته، ربما لم يعرفها، وربما احتفظ بالنهاية لنفسه!

النهايات المفتوحة ليست ممتعة دائما، ولكن ليس من الصعب توقع ما حدث..

هل قُتِلَ؟!

أغلب الظن أنه قُتِلَ بالفعل.

لا يمكنه الاختفاء كل ذلك الوقت دون الاتصال بيارا ناصر وعائلته، ودون مصدر دخل يساعده على الإنفاق على أساسيات الحياة (مأكل ومأوى)، لن يتغذى على الحشائش ويسكن الجحور كالجرذان أو ينام بين أغصان الشجيرات كالطير.

من قتله؟!

حسن زيدان هو الوحيد الذي يعلم جيدا من الشخص الذي سلبه حياته.

وربما نتوقع نحن أيضا من يكون القاتل.

جمال أبو هاشم ليس ساذجا كي لا يدرك اكتشاف حسن زيدان لتواطئه مع رياض عامر.

ربما قتله بنفسه، وربما استعان بأحد آخر لينجز المهمة، إخفاء جثة حسن زيدان وسيارته بعد مقتله لن تكون مهمة عسيرة على الإطلاق، وتصدير الأمر على أنه اختفاء خير ألف مرة من كونه قتل.

أغلب الظن أنه لم يدور بين القاتل والقتيل حوار جدير بأن يفرد له صفحات في الجرائد تخليدا لما قيل. ربما لم يكن هناك وقت لحوار متبادل بين حسن زيدان وبين قاتله من عينة تلك الحوارات الطويلة المملة المليئة بالعبر والعظات والحكمة التي تتقاتر من فم القتيل والتي نراها في الأفلام السينمائية والروايات.

ربما أشار له قاتله أن يتوقف بسيارته على جانب الطريق ولكن حسن زيدان زاد من ضغطه على دواسة البنزين ليزيد من سرعته.

لم يكن ذلك بغرض الهرب بالطبع!

نظنه كان يحاول أن يفعل ما بوسعه قبل استقبال نهايته كي لا يعد موته انتحارا، بل قد يحتسب شهيدا مدافعا عن ماله وحياته.

مطاردة – على الأغلب – لم تطل؛ ليتمكن قاتله من إجباره على التوقف، حسن زيدان عجز عن فتح باب سيارته إذ اغلقت سيارة قاتله الطريق أمام محاولاته فتح ذلك الباب المجاور له.

نتوقع سويا أن الأمر قد تم بسرعة بالنسبة للقاتل، رصاصتي خرطوش على سبيل المثال انطلقتا من سلاح الخرطوش محلي الصنع لتقوم الكرات

المعدنية بدورها على أكمل وجه بتفجير جمجمة حسن زيدان بالكامل من هذه المسافة القريبة وتحدث ثقوبا بصدره.

بالطبع لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة منذ توقفت سيارته وحتى استقبال طلقتي الخرطوش!

تلك الدقيقة التي مرت على حسن زيدان كانت كافية ليرى فيها حياته القاسية تعرض أمام عينيه..

أمه ومرضها فموتها..

زواج أبيه وشجارهما بسبب تلك الزيجة..

أخته التي لم تهتم إلا بمصلحتها فقط..

طفلاه ولهوهما معه..

صرخاتهما وقت احتراق الشقة قبل أن يصعد ملك الموت بروحيهما ليريحهما من عذابهما..

وصوله أمام البيت ورؤيته الدخان يتصاعد من شقته بالأعلى ..

صفعاته لزوجته..

جنازة طفليه..

حادثة غرقه..

انزلاقاته عبر نفقه المظلم..

وصوله المتكرر لغرفته المظلمة..

سباحته بمهارة بين الموجات الصوتية..

منير راضي الشيخ اللوطي اللعين المتسبب في كل ما حدث..

جمال أبو هاشم ومعاملته غير الآدمية المتعمدة له..

الخنزير اللعين رياض عامر الذي تكفيه جريمة الإتجار بالأعضاء البشرية لتنزع منه صفة الإنسانية..

شهامة علاء نبيل الدائمة..

ابتسامة يارا ناصر الطفولية العريضة وغمازتيها الساحرتين..

ضحكات طفليه..

ثم أظلمت الدنيا من حوله حين استقبل طلقة الخرطوش الأولى مباشرة في جانب رأسه الأيسر..

لم يتمكن قاتله من رؤية ابتسامة السعادة والرضا التي ارتسمت على وجه حسن زيدان وقد ظفر كما تمنى مرارا بما أراده..

ظفر بانتحار يريحه من حياته القاسية ..

انتحار لا كفر فيه ولا ذنب ولا وزر..

ظفر بانتحار شرعي طالما تمناه!

تمزقت للأبد الخيوط التي تربط عروسة الماريونيت بيد محركها.

***

وقف أمام النافذة عاقدا يديه خلف ظهره متطلعا للشارع وقد أطال التفكير في محتويات هذه الأوراق المرسلة إليه، لا شيء يجزم بصحتها رغم بعض المكالمات الهاتفية التي أجراها للتحقق من اختفاء مرسلها، ولكن إن صحت في ذات الوقت محتوياتها فالأمر جلل لا يحتمل التهاون أو الانتظار، إثبات تلك الإتهامات لا يتطلب مجهودا كبيرا، كومة القش مليئة بآلاف الإبر الضخمة الجلية التي لا تتطلب مجهودا للبحث عنها، كله ثقة بأن وزارة الداخلية لن تتواطء مع المفسدين.

"فإذا عزمت فتوكل على الله"

حدث نفسه بصوت مسموع ثم عاد إلى مكتبه ورفع سماعة الهاتف محدثا السكرتير بالخارج:

- اطلب لي وزير الداخلية.

[تمت بحمد الله]